أيام زينب

رواية

الهادي فتح اللّه

دار المحرر الأدبي

توطئة. مُفتَتَحاتْ.

-أول...

لما سُئل: لماذا تقف هكذا عرياناً في وسط الحارة.

أجاب ببلاهة: لأنني وددت أن أكون (بريئاً. صافياً) كما ولدتني أمي. وإذا قررت أمي-ذات يوم أن تعيدني لرحمها، أجدني جاهزاً، دون أن أتحمل عناء خلع ثوبي القشيب (النجس) المُحمَّل بكل خطايا عمري!!

-ثانٍ...

.."السعادة. هي المتعة من غير ندم".

سقراط

-ثالث...

.."لا يوجد مستبد حيث لا يوجد عبيد"...

خوسيه ريزال

(بطل قومي فلبيني، ومناهض للاحتلال الأشباني)

((على سبيل المودة))

هل أنا كنت طفلاً
أم أن الذي كان طفلاً
سواي؟
هذه الصورة العائلية
كان أبي جالساً
وأنا واقفُ تتدلَّي يداي!

"أمل دنقل"

مهاد.

قال ولم يتردد في القول:

"من أذكر فضيلة التاريخ فقد تباعد في الجهالة وتوغّل، حتى تحمّر بعد الإنسانية وتبغّل"

((المؤرخ المغربي محمد بن أحمد الكنسوسي))

الفصل الأول

المُؤرخ

... كتب الكونت ((جوفييه)):

" ...إن مصر تقع على عتبة دارنا. ولم تعد ملكاً للأتراك. فالباشا صفر، ومصر ليست ملكاً لأحد."

***

..القاهرة. ما القاهرة؟

حاضرة الدنيا، ودُرة الشرق والغرب معاً، القاهرة عاصمة ((المحروسة)). ليست فقط محروسة بألف مئذنة أخذت هيأتها في مسلات الفراعين أول من أحسوا بالخالق، واتجهوا إليه، ووحدوه، فعبدوه قلباً وقالباً، وليس فقط من ألف قبة أخذت أشكالاً عدة، ولا من مئات أضرحة لأولياء الله الصالحين الذين أتوها من فيافي الجزيرة العربية والمغرب العربي. ليس فقط من عتبات العائلة المقدسة، أو الأديرة والكنائس. ((المحروسة)) مصر- هي بفكرها العميق الصافي، ومعارف علوم كهنة الفراعين المذهلة، مصر مُكتشفة الضمير الإنساني، وملهمة ((اليونان)). ومُطعمة الرومان، ودُرتها الزاهية.

نراها عملاق الأساطير الذي يعطي ظهره لبحر الرومان (المتوسط) يفرد ذراعيه شرقاً وغرباً ،يستقبل أمواج النيل، نيل النجاشي ،تتعاقب الأمواج متدحرجة ناحية الشمال، تري

الزا حف مُترع يـ تدفق بـ قوة تـ فوق الخـ يال، وعـ لي ضفتيه مـ ساحات وا سعة من الخـ ضرة والأ شجار با سقة، وصو صوات العصافير تتشابك، تتضافر ،ثم أسراب منها تنطلق من أغصان الأ شجار إ لي الأ جواء الرحـ بة، الرطـ بة ، تخا طب نـ سائم الشمال الندية، وقوارب عديدة علي مسافات متقاربة ، وهي طاو ية الـ شراع، ولأ شرعها البيـ ضاء تهفـ هف كـأجنـ حة طـ يور عملاقة ، قوارب تحمل أجولة ، وقوارب تحمل الفخاريات....

و مع أذان الفـ جر، تخرج الـ قاهرة علينـا تنـ ير الأ فق بـ ضوء الـ شفق البا هت، ا لهواء لذ يذ، والنـ هار يتجـ لى بإنعا شه لـ صُبح مبلل، .... بألوان مُبهجة.

((حجاج أدّول.... ثلاث برتقاليات مملوكية))

قبل أن يختل ناموس البَدء.....

كانت القاهرة قبل (حملة الفرنسيس عليها عام ١٧٩٨م) بسنوات طويلة -هي القاهرة المملوكية، بها عز مُقيم، وسلام حميم، ورزق وفير، وأمن مُستتب، في كل يوم قصر يُبني، وجامع يُشيد، وبيمارستان يُقام، وبيوت تصدح بالحدائق والفسقيات، شوارع تستقيم، وأسبلة للناس، وأسبلة للمواشي، وفي كل حي حمام عمومي يرتاح فيه الذكور والإناث. ثم تراخت تلك القوة، وهمدت، وتنازعت، وتزايدت الفتن والصراعات، وكان ذلك هو أول مسمار في نعش المحروسة. ..

(صفر)

تلويحه البَدْء/. من مؤرخ / عجوز.

...في لحظة من اللاوعي ، خارج حدود الزمن ، وقفت مشدوهاً... فتشت عنه في سراديب الجبل ، وفي قِصاع الأطعمة المهجورة ، فرأيته

(تسعيني). ترتعد فرائصه، وهو يرتشف حليب الطمي، (الزَبد الأسود) الممزوج بالطحالب الخضراء = براز العجوزة المُخضر. ويلتحف بندف الثلج ..

قال: " قال المؤرخ الذي لا يسرد التاريخ عمداً. وصمت.

قال في موضع آخر من المشهد: ". ربما لأنني لم أمثل أي دورٍ من قَبلْ، كان عليَّ في البداية أن أرتدي شارب المؤرخ العجوز ولحيته ناصعة البياض، صامتاً كنت أتكلم، أرفل في أسمالي الفضفاضة، ترفرف غترتي. أتحرك في خفة الفراشة.

.. ينسل جسدي البدين في رشاقة منسحباً إلى أعطاف البلدة. وسط بُهمة الليل، وبين الدروب الثعبانية، والنباتات الشيطانية، رحت أتذوق أمومة الأرض. نطقت الأرض المباركة، تتحدث عني وتشير بسبابتها-المعروقة -إليَّ ...

" هذا الشجاع، له غرامة الفحول، وصباحة الوجه، وسجاحة العيش، وأصالة النسب، كان يتشمم رائحة الدقيق

الخارج تواً من وابور الطاحين القديم، يقيم الأعراس على مشارف البلدة، ويلعب (الدمينو) في مقهى بلدي قبلي الحي، ويطوف حول مقامات الشعر يروم البركة، و يردد أوراده اليومية من (دلائل الخيرات)، ويلتحف برداء العفة، يبدأ من نبع النهر الخالد، وينتهي فيه ..."

وهنا. أدخل حجرتي دون انتباه لأفواه أفراد الأسرة، كانت تنفتح وتنغلق على تعبيرات بين الحنو، والشفقة، والفضول، والعقاب. جميعهم قالوا...

نطقت الأم-على سبيل المثال لا الحصر-، فصدر عنها صوتُ خالٍ من الشماتة، وإنما جاء؛ لتحجيم (الفطفطة والنطنطة) التي كانت تعيش فيها....

- "أنت يا زينب يا بنت خليل البكري، سوداء قبيحة نحيلة. رفيعة (عصعوصة) لن تجدي من يطلبك للزواج فيما بعد! " ثم ضحكت وخرجت ... فخيم على وجه الفتاة العبوس، والفتور.... واهتزت نفسها من كلام الأم.

التي لم تعر للموضوع اهتماماً. فيما بعد...!!

.

(بعد الصفر وقبل الواحد)

ليلة الزفاف والكلب

تزوج نابليون من جوزفين عن حب تملك قلبه وعقله، وحدث ليلة زفافه أن رأى نابليون عروسه الجميلة تدخل إلى فراشها مع كلبها العزيز، وتضعه على مقربة منها، فطلب منها إبعاد الكلب، ولكنها نظرت إليه باحتقار، وقالت:

- الكلب أولاً. !!، فإذا لم يعجبك، ينام الكلب في فراش عرسي، وأنت. في استطاعتك أن تنام في أي مكان آخر...

ونزل المسكين؛ تنفيذا لإرادتها، ونام والكلب معها في سرير واحد -هههههههههههههههههه.

ويقول نابليون:

- إن الكلب عضني في قدمي في تلك الليلة، فعملت على التخلص منه -فيما بعد - فأوعزت إلى أحد الجزارين فقتله في الشارع.... وارتحت من قذارته التي لطخت غرفة نومي. !!

(١)

كان النهارُ في صولة شبابه، والشمس الحامية تصنع من أشعتها أساور ذهبية لأعناق وأذرع وأرجل نساء المدينة، تبعث هي بسطوتها، وهَّاجة، ملتهبة، تكاد تشوي الوجوه، الوقت يزحف ببطء نحو رطوبة المكان الفسيح، وبعد قليل، يزحف النسيم العليل، يفتح جَناحيه صوب البحرِ الهائج بموجه المرتج كالبيض الفاسد، والندي يتصاعد رويداً رويداً من البحر دون كلل أو ملل،

أنت من الخلف تري الميدانَ فسيحاً قديماً، والمباني عتيقة ... مرتجفة. وضوء العصرية الشفيف تشعر به رخيماً، يخيم على الطرقات المبلولة بتبولٍ لا إرادي من موج البحر ...، ونواصٍ حجرية مبعثرة تثير الحنين، فالمدينة تلتحف بدفء التاريخ والآثار من كل حَدبٍ وصَوبٍ، بتاريخ يزيد عن الأربع آلاف سنة،

(مدينة الإسكندرية). هي المقامرة، والمغامرة، هي المهابرة والمثابرة، هي المائزة عن المألوف، ومغايرة السائد. كانت السماءُ دانيةً، حُبلي بسحب متقطعة، توحي ببحر قريب، وأرصفة عريضة تحدها أقواس حجرية متوالية، متتالية، ومتاجر متجاورة، وعلى مقربة منهم تقف قلعة (قايتباي) شاهقة غامضة. تحمل بداخلها دفتراً من الأسرار.... والأساطير

!!

(٢)

على هامش المجيء...

أصدر نابليون منشوراً والبوارج تقترب من الإسكندرية:

- " أيها الجنود. إنكم موشكون علي فتح له آثار بعيدة في حضارة العالم وتجار به. و ستطعنون انجلترا طعنة تؤذيها لا محال في أضعف مواطنها. انتظاراً لليوم الذي تسددون فيه إليها الطعنة القاتلة. ولن تنقضي على نزولنا البر أيام حتى نقضي على بكوات المماليك الذين لا يراعون غير التجارة الإنجليزية، والذين يظلمون تجارنا بمعاكستهم والذين يستبون بأهل وادي النيل الأشقياء."

...وفي الصباح الباكر ....

العام ١٢١٣ هـ، واليوم هو الاثنين، الثامن عشر من المحرم من الهجرة النبوية الشريفة، الموافق الثالث عشر من يوليو ١٧٩٨ من الميلاد .....

في هذا اليوم بالذات، كانت الشمس تدرُج من خدرها، فترسل أشعتها حامية الوطيس، ومدينة الإسكندرية في هذا الصباح جاثمة فوق الشاطئ ترقد كالسيدة العتيقة العجوز، بارتفاع مآذنها، وبمناراتها التي تتألف في أكثرها من أربع

طباق، وتكثر بها الزخارف الفنية والشبابيك والمشربيات التي أبدعت صناعتها من قطع الخشب الصغيرة المخروطة، ذات أشكال هندسية بارعة الدقة. والحُسن.

كانت المدينة تنعم بلذة الهدوء الذي احتواها من ليلة أمس.

ولكن، قرب المغيب، جاءت الأنباء علي يد الصيادين، فتغيرا لحال، كان الرعب يتملكهم، وبأ صوات تلهج، مضطربة، قلقة:

صوت(١)

- " الفرنجة اقتربوا من شواطئ مدينة الإسكندرية..."

صوت(٢)

- "... سفن الفرنجة كثيرة جداً "

صوت (٣)

- " وعالية كالجبال!!...."

وقف السيد محمد كريم حاكم المدينة-برفقة المتطوعين وقبائل البدو - كان مهيباً، طويلاً كجذع النخلةِ، يتقدم الرجال، متين الملامح، راسخ النظر، كان يرأب برقبته صوب البحر، هو طاعن في السن، بيد أنه يبدو صحيح البنية غير ذي علةٍ، ذو لحيةٍ طويلة مدببة، ترقد على رأسه عمامةُ كبيرةُ بلون صوف الغنم، يتدلى طرف شالها حتى صدره، يرتدي

قفطانه الشاهي، و(كاكولته الجبردين)، وقف يشد من أذر رجاله قال لهم بصوته الأجش، القوي:

-" يا رجال هذه بلادنا، وليس للفرنجة عليها سبيل، ندافع عنها أو نموت!"

وعندما تزاحم الموقف وازدادت قسوته، خمسمائة سفينة تحيط بميناء الإسكندرية، أخذ محمد كريم يسطر كتابه إلي مراد بك، يستغيث: ((إن العمارة التي حضرت مراكب عديدة، ما لها من أول ولا آخر يُوصف، للّه ورسوله داركونا بالرجال !!))

(٣)

وحين لاحت سفن الأسطول الفرنسي في الأفق، كانت الشمس كرة حمراء، تتوسط كبد السماء، تنشر لونها القاني علي سطح البحر فتحيلها ناراً متقدة في مواجهة الموج... جاء إلى مصر ما يقرب من ٣٥ ألف جندي وبحار وألف مدفع و٥٦٧ عربة و٧٠٠ حصان و١٠٠ ألف رصاصة و٤٤٠ سفينة وفرقاطة، في أسطول، كان يشغل مساحة في البحر تقترب من أربعة أميال مربعة

وقف السيد محمد كريم مفكراً، رفع حاجبيه، ثم أخذ يرفل مضطرباً، يشق الجموع المحتشدة، كان بصره يتعلق

بالموج المتلاطم تحت سيل السفن، كانت ظلالها تغطي مياه البحر، قال وقد ارتجت أركان نفسه:

-"نعم، لم يكذب الصيادون، فسفن الفرنجة كثيرة جداً، وعالية كالجبال!!...."

كان يشعر بجلده يحترق بقيظ الشمس اللاهب، والعرق ينثال من كل جسده، حملق صوب البحر من جديد، كان وجهه شاخص في رعب غير بادٍ على تصرفاته، فتح عينيه ببطء، ومن خلف غمامة ضبابية، تشاهد وجه عميق التجاعيد، بشرته تحمل رائحة عتيقة، راح يتمتم بأوراده اليومية .... :

-" يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث"

"لا إله إلا الله الملك الحق المبين"

في هذا الأثناء، كان يسمع دوي المدافع، ظل القصف المتبادل من الجهتين طوال النهار، الصخب يتزايد، والحركة علي قدم وساق، وسفن الفرنجة لا زالت تمخر عباب البحر، تئز، تئز، تحت ضربات الرياح والأمواج.

(٤)

بمدينة القاهرة، في ضحوة اليوم التالي...

وفي شرفة قصره الفخم، رفع (مراد بك) كتفيه، وأظهر السخرية، وهو يقبض على الرسالة الواردة تواً من السيد محمد كُريم حاكم الإسكندرية، وقف بقامته الفارعة، الممتلئة، والوجه الشركسي الشاحب المستدير، يرقد في رداء فضفاض من الحرير، وسيفه يتدلى من جنبه الأيمن، يضوي كالبريق، راح (مراد بك) يخاطب صديقه (محمد بك الألفي):

" الفرنسيون يا محمد بك فستق، خُلق للأكل، لا للحرب. !!"

نطق محمد بك، ودخان النارجيلة الصادر من ثغره، يخفي ملامح وجهه:

- " معك الحق يا باشا. (صمت قليلاً). وهم دولة الكُفر والأشرار، ولكن (كُريم) حاكم الإسكندرية، صعب المِراس، ونشهد له-نحن المماليك-بالشجاعة والجسارة، فلولا الأمر جَلل، ما استغاث برسائله تلك. فوق ذلك فبلادنا مصر، فيها كل شبر من ترابها غالٍ علينا."

كان (مراد بك) أقرب -في طبعه -إلى إيثار السلامة.

فرد وإن غلف ذلك بكلماته، يخاطب زوجته خلف نقابها:

-" جنود نا يا (نفيسة هانم) ستحطم الفرنسيين بسنابك الخيل المتهمة !!." وستحصد جماجمهم الجوفاء بوارق السيوف.

(٥)

تزاحمت الطرابيش، مثل حزمة من البراطيش، وهم لابسون زنوط وبشوت، محزمين عليها. وهنا. تراقصت أضواء القناديل الباهتة على بوابة القصر الحديدية الضخمة...

المشهد علوي ....

كان الليل داخلي. في الطريق المواجه لمدخل القصر حيث أضيئت لمشاعل حتى بوابة البهو الكبير

وبعد لحظات، توافد مشايخ الأزهر الشريف علي قاعة الاجتماعات، وأمراء المماليك وقاضي البلاد

فطفق الوالي مرحباً:

مرحباً بمكارم أهل البلاد-.

لهج قاضي البلاد:

أدام الله كرمك يا سيدي-.

اجتمع (والي مصر) مع الجمع بـ (القصر العيني) ...

قال (مراد بك)، يتملكه الغضب، وتدفق الدم الحار في عروقه:

- لم يحضر الفرنجة إلى بلادنا إلا بإذن من الدولة العثمانية.!..

تغير وجه (أبو بكر باشا) واحتد في القول، ورماه بنظرة شزراء:

- تعقل يا (مراد بك). فكلامك درب من دروب الخبل!

:نطق الشيخ (السادات) ، يخاطب (مراد بك)

- إن هذا من سوء أفعالكم، وظلمكم لشعب مصر، المغلوب على أمره....

تقدم الشيخ (الشرقاوي) قليلاً، فقال:

- وأمور عديدة تجل عن الحصر تُنسب للمماليك، ولكن ثمة أشياء محدودة هي (مربط الفرس)، "التجبر" على مخاليق الله.

عاد الشيخ(السادات) للحديث، كلامه كان إيذاناً بتغير ميزان القوة:

- وعلى المماليك-وأنتم على رأسهم- صد هجمات المغيرين، فهذه ضريبة حياة المتعة والترف التي سلبوا بها حياة المصريين...

قال (مراد بك)، دون أن يعير المشايخ اهتماماً:

❖ يا سادة. سأحطم الفرنسيين تحت سنابك خيلي.

تدخل (إبراهيم بك) فقال:

- الأمور لا تُحسم بالأقوال يا (مراد بك).

حدجه (أبو بكر باشا) بإعجاب:

- هذا عين العقل، وعليكم وبمساندة مشايخ الأزهر أن تضعوا خطة علي قلب رجل واحد؛ لصد الغزو الفرنسي لبلادنا.

فأ صاخ (مراد بك) سمعه، ولم ينطق ببنت شفة بعد الذي قيل.

...وانتهى الاجتماع قرب الظهيرة

(٦)

قال الخادم النوبي(فيروز)، يتسامر في خبث مع الطباخ (ريحان):

- " لقد أمضي سيدي (مراد بك) ليلة أمس. يرتعش في بهو القصر بجوار المدفأة كفرخ الحمام المبلول في الشتاء القارص، وقد طفا من أغوار عينه الجُبن!"

(٧)

الوقت، في الصباح المشمس الباكر. قالت السيدة نفيسة:

- "مصر يا مراد بك بلادنا، ويجب أن نحافظ عليها من

الفرنجة، فمن العار أن نرتعد كالصغار. أراك عابساً جازعاً ...!! "

صه يا هانم... صه يا هانم" -"

وعندما احتدم النقاش، وطق الخلاف، علت الأصوات، فغمغم

(مراد بك)؛ يداري رعبه، وهو يحتسي فنجال القهوة:

- "سبق وأن قلت لك يا هانم، إن الفرنسيين فستق، خُلق للأكل، لا للحرب. وأنا خير من يأكل الفستق، يا زوجتي العزيزة."

تمتمت السيدة (نفيسة) بصوت خفيض غير مسموع:

أصبحت فسلاً رعديداً خائر العزم." - "وحاسرتاه. على الرجال،

وراحت تجتر ذكريات البطل. الأسد. زوجها السابق المرحوم

(علي بك الكبير) والي مصر السابق...

وعندما هدأ الليل في القصر، أخذ (مراد بك) يعب في الشراب عباً، يخاطب الظلام الحالك، ويناجي قناديل السماء في قلق. ورعب!!

(٨)

خرجت الحملة التي أعدها (مراد بك)، يتقدمها الكوات وأمراء المماليك على جيادهم المضهمة، وهم في أزيائهم الفخمة، وخلفهم فرسان بأسلحة كاملة وعددهم حوالي خمسة آلاف. ضف إلى ذلك، فالحملة تحوي عدداً غفيراً من الجنود غير النظاميين بين مصريين وأتراك وهنود وسوام وسودانيين وأحباش، تتبعهم أرتال من البغال والجمال والحمير، تحمل المؤن والذخائر... وخرج لتوديع الحملة عند المقطم كبار البلاد والعلماء. تتقدمهم النفخ في الأبواق ودق الطبول، وما إلى ذلك من ضروب الزينة والتكريم...

(٩)

في الظهيرة...

أطلق أحد القناصة العرب النار من نافذة بيته على نابليون نفسه، فأصابه في حذائه، ورد بعض جنود الفرنسيس بإطلاق النار على الرجل، وتسلق بعضهم إلي داخل البيت عن طريق السطح، فوجدوا القنَّاص، وكانا رجلاً وامرأة، فقتلوهما فوراً.

كان صوت البنادق وطلقاتها تقطع فضاء مدينة الإسكندرية، وظهرت طلائع الجيش الفرنسي على مساحة

شاسعة من الشاطئ، فالتحم معهم (إنك شارية المماليك)، وقتلوا قائد أحدي الطلائع، دارت المعارك في الشوارع الجانبية، والحارات والدروب الثعبانية، وفي الخلاء، وانهالت طلقات الرصاص من النوافذ والشرفات والأسطح، ومن خلف المتاريس، وأصيب الجنرال الفرنسي (كليبر)، نائب القائد العام بطلق ناري لامس جبهته، وأصيب الجنرال (مينو) بضربة حجر قوية في عضوه الذكري. والتحم الطرفان-بعد هدنة دامت ساعة- مرة أخرى، لكن الدائرة دارت لصالح الفرنسيين، فزاد عويل النساء، وصياح الأطفال، وانتشرت الفوضى. وراحت بعض النسوة يبحثن عن أولادهن ملهوفات، وارتفعت الأصوات والسِباب، وطفقن يتضاربن والعربات التي تجرها الخيل تنساب كالريح لا تلوي عن شيء، فتثير الغبار وتطلق من الأفواه اللعنات. وسقطت المدينة في يد القائد العام نابليون بونابرت، الساري عسكر الكبير، وأمير الجيوش الفرنسية، وتم القبض علي السيد محمد كُريم، وسُلمت المدينة بقلاعها وأسوارها ومرافئها. وكانت الجثث متناثرة في الدروب والأحياء، تسحقها سنابك الجياد. وترامت الأذباء المتضاربة، وتزايد الصخب، وفي هذا الأثناء، كان يُسمع دوي المدافع، ينهمر كالمطر، تحت سماء مكفهرة، فتكاد تخلع الأبواب والنوافذ من مصراعيها.

(١٠)

لا يُذكر لهذا اليوم اسماً، فقد خلت طرق المدينة من السابلة إلا من دعته شدة الحاجة إلى المسير، وأما الأغنياء والموسرون: فلبسوا البيوت وزرَّروا الأبواب، والتجأوا إلى سراديب عميقة من الأرض، ثم عاد عويل النساء والأطفال يتزايد، تسمع ألواناً غريبة ومختلفة من الصرخات الفزعة مجدولة بمواء القطط ونباح الكلاب، وعواء العسكر وضحكاتهم التي تحمل النشوة والارتواء. ثم رجعت الحالة إلى الهدوء، والسكون، والجلال، والرهبة.

(١١)

في اليوم التالي.

ارتفعت أصوات شيوخ الحارات، تنادي في الناس بفتح الأسواق، وتعليق القناديل على الدور والدكاكين؛ لإدخال الطمأنينة في قلوب أهل المدينة، ورُفعت أعلام فرنسا على بنايات المدينة، وطالب(نابليون) من الأعيان والوجهاء، وأصحاب العمامة بجمع السلاح، ووضع شارة الفرنسيين على صدورهم، وألف مجلساً لحكم المدينة....

(١٢)

عندما بلغ الليلُ منتصفه، في هذا الأثناء، كان يُسمع دوي ا لمدافع، يق طع صمت ال ظلامِ، وال صخب يتزا يد م صحوباً بتكبيرات من المساجد وأجراس الكنائس.

(١٣)

- يا ويلنا، لقد وقعنا في اسر الإفرنج...

كانت تلك هي العبارة التي تبادلتها النساء في مصر. وهم يلطمون الوجوه.

(١٤)

مع غروب الشمس.

قال الحارس الخاص يخاطب القائد العام:

- " سيدي القائد، رجل يُدعي (يعقوب القبطي) يلح على لقاء سيادتكم"

قال نابليون لحاجبه:

"يعقوب ؟؟... وقبطي. ؟!

مط شفتيه ثم هز رأسه:

" دعه. يدخل."

فدخل رجل ، فارع الطول ، بض ، وجهه تشوبه الحمرة

، له عينان شديد سوادهما ، بيسارهما حول خفيف لم يذهب لها من تأثير نافذ و قوة مسيطرة ، و كان بشفته السفلي بعض الغلظ دفعها إلي التدلي قليلاً، كما كانت أنفه كأنوف أكثر المصريين ،. كاد يكون أفطس، لولا أن تداركه ارتفاع وبعض استواء في قصبته، وجهه بجملته ينم عن الشره والشهوانية والختل والأثرة، قليلة هي خطواته تقدم (يعقوب القبطي) خطوات ، فقدم التحية ، ودخل حتى وقف علي مقربةٍ من القائد العام ، هو عارفُ بتاريخ مصر ، واسع الاطلاع فقال :

-"أنا يا سيدي " يعقوب حنا القبطي" موطني ومسقط رأسي صعيد مصر بمدينة أسيوط. إني لم أجئ هنا يا سيدي إليكم لأطلب مالاً، ولا لأبتغي منصباً بل لأقدم لكم يد العون في القضاء على من يعاديكم."

تبسم نابليون ونهض مرحباً :

" تفضل يا صديقي وأجلسه بجواره. ثم استطرد نابليون كلامه:

" نُسلم بصدق حديثك يا يعقوب. لكن. لِمَ؟؟ ..."

أجاب (يعقوب) وهو يقترب أكثر من القائد ، يهمس:

-" سيادة القائد العام. أنت بتفهم ها و هي في طائرة في السماء، ويطيب لي شرف المثول أمامك !! "

تبسم نابليون عن فم تزاحمت فيه الأسنان البيضاء، وقال:

- "الموضوع بسيط ولا يتطلب تفكير. فالبديهي أنك مصري. وعامة الناس من قاطني مصر، مصريون أو عرب مسلمون أو مسيحيون، الكل يكرهنا، يتصورون العمى ولا يتصورونا، فمن الطبيعي أن يشوبني القلق من أمرك يا (يعقوب)، حكاية هي خَلفْك بالتأكيد...!"

قال (يعقوب) مبتسماً:

-" يا سيدي. (يعقوب حنا القبطي) وطنه المال. وملته مصلحته. فمنذ نعومة أظافري لا أفعل شيئاً أو معروفاً في أحد كما يقول المصريون الغالبة لوجه الله! "

تبسم نابليون مرة أخرى، وصفق، ثم حضن (يعقوب) بقوة، وقال:

" من اليوم يا يعقوب. أنت معنا.... من رجالنا الأفاضل أمثال: مينو وكليبر ... (شرد لحظة ثم عاد لابتسامته وأشار بإصبعه). أنت من اليوم (الجنرال يعقوب). منا ومنك"

فضحك (يعقوب) وشد على يد القائد العام، وقال بتقريرية:

" ثقتك الغالية يا سيدي شرف عظيم لي، أعاهدك منذ اليوم أن أكون عوناً لكم، مؤيداً، وعلى أن أعاضد أولياءكم، وأحارب أعدائكم، واتخذ كل وسيلة، وكل أداة وكل ذريعة؛ لرفع شأنكم في مصر، وإماطة الضر

عنكم، وأن يكون دمي وشرفي ومالي هدراً مباحاً، إن خنت لكم عهداً، أو نكثت بوعدٍ، أو توانيت عن وفاء ..... "

قاطعة نابليون بتصفيق حار، مرة أخرى، وابتسم، ثم قال وهو يربت على كتف (يعقوب) بحنوٍ:

" نعتبر هذا قسماً يا سيادة الجنرال؟؟! ..."

يعقوب مؤكداً:

"هو بعينه يا سيدي"...

ثم تصافحا بحرارة.... وابتسما معاً.

وقتها كانت الشمس لا زالت تتوسط كبد السماء...

(١٥)

من هؤلاء الذين تعاونوا مع الفرنسيس، كان"برتلمي" فرط الرمان. و" شكر الله " والمعلم " يعقوب"....

(١٦)

لقد كون" يعقوب " الفيلق القبطي تحت إشراف وإمرة قيادة جيش الاحتلال فقد كان يطلق النار من داخل قلعته، على مؤخرة الثوار ...

(١٧)

عندما وقف نابليون بونابرت أمام أهرامات الجيزة، قال والفخر يعتليه:

- " أيها الجنود إن أربعين قرناً تنظر إليكم من هذه الأهرامات.

(١٨)

في اليوم التاسع عشر من يوليو.

التقت قوات الفرنسيين و قوات المماليك، وانطلق (مراد بك) فوق جواده ، يصارع الريح، وهو يصرخ في جنوده بفزع ، شاهراً سيفه، كانت المعركة في شبرا خيت - حامية الوطيس، وحلت الهزيمة بالمماليك، واستحوذ الفرنسيون علي السيوف والرماح والحِراب، وتحت حزمة الأضواء الساقطة من السماء علي بيوت المدينة الواطئة والآيلة للسقوط، لاحق اليقين بـ(مراد بك) بأنه يواجه ما لم يعهده من قبل ، وإنه لن يفلح في صد الهجوم الفرنسي الغاشم كما ادعي من قبل في غطرسة منه ، وعندما تزاحمت عليه الأهوال، قرر الفرار، فجفل جواده في بدء الأمر، لكنه واصل الفرار لا ينظر خلفه، فر ناحية الجنوب، يروم صعيد مصر وقراها، وأخذ- وقد لفته العاصفة الهوجاء يقطع المدقات الترابية الخالية ، و جواده

يركض، ويلهث، ولاح له النخيل السامق يُطوق بيوت القري , والغبار الشديد قد حجب- أمامه الرؤية..

(١٩)

وبعد أيام قليلة...

تسلل جنود نابليون إلى قصور مراد بك وإبراهيم بك الكائنا خلف الأزهر الشريف، فسلبوا ما فيهما من خيرات، ومجوهرات، وأردية، وعلى ضوء القمر الشاحب، تلمح شبحاً يجري بين الأشجار، كان المشهد يتأرجح بين الوهج والظلام، راح الشبح يهرول ويتعثر، لا ينظر حوله، وأنفاسه تضطرب، توقفت قليلاً، حوقلت وراحت تعزف لحناً من الهمهمة المتقطعة. عندما اقترب منها الجنود وقبضوا عليها، وقفت بين أيديهم صامدة. تقدم منها أحد الجند وحدجها بنظرة ازدراء قال بحدة:

- زوج مراد بك، نفيسة هانم، تحاول الفرار بجلدها كما فر زوجها.

قالت نفيسة هانم، وقد تنفست الصعداء:

- " مراد بك لم يهرب، وسيجيئ اليوم الذي سيدفع فيه قائدكم الأهوج

(بونابرت) جراء ما صنع فينا، نحن السادة."

سحبها أحد الجنود من ذراعها البضة، وقال:

" سنري يا هانم. !!."-

.... وقتها، كان قد هبط الليل، وزحف طويلاً، وتكاثف الظلام وامتد، وراح الفجر الرطب يشق طريقه بين النجوم...

(٢٠)

"... واااااااااحد..... مفيش تاني...."

هو صوت المجذوب (علي السريطي) يجوب الحارة، يرفل في أطماله الباليه. ويجر بحبل خلفه علب من الصفيح الفارغة.

(٢١)

((سفر أول من أسفار الجبرتي..(.)

((..... لما حضر الفرنسيس إلي مصر ، مع البعض منهم نساؤهم , كانوا يمشون في الشوارع مع نسائهم وهن حاسرات الوجوه , لابسات الفتاتات والمناديل من الحرير ات الملونة, ويسدلن علي مناكبهن الطرح الكشميري والمزركشات المصبوغة , ويركبن الخيول والحمير , ويسوقونها سوقاً عنيفاً

مع الضحك والقهقهة , ومداعبة المكارية معهم و حرافيش العامة , فمالت إليهم نفوس أهل الأهواء من النساء والأسافل والفواحش , وتداخلن معهم لخضوعهم للنساء وبذل الموال لهن , وكان ذلك التداخل أولا مع بعض احتشام , وخشية عار , ومبالغة في إخفائه , فلما وقعت الفتنة الأخيرة في مصر وحاربت الفرنسيس بولاق وفتكوا في أهلها وغنموا أموالها , اخذوا ما استحسنوه من النساء والبنات , و صرن مأسورات عندهم فزيوهن بزي نسائهم وأجروهن على طريقتهم في كامل الأحوال , فخلع أكثرهم نقاب الحياء بالكلية , وتداخل مع المأسورات غيرهم من النساء الفواجر.

كانت الغنائم التي تركها المماليك من النساء والجواري البيضتكفي. فقد كانت السبايا من الأرمينيات والكرجيات تؤخذ رأساً إلى كبار القواد.... .

يقول صاحب الأسفار:

- " أما الجواري السود فإنهن كن أشد رغبة والاستعداد من الأرمينيات والكرجيات البيض، ولما علمن رغبة القوم في مطلق الأذى هبن إليهم أفواجاً، فرادي وأزواجا ونطن الحيطان، وتسلقن إليهم من الطيقان، ودلوهم على مخابئ أسيادهن وخبايا أموالهم ومتاعهم وغير ذلك.... وأخذ النساء يظهرن، ويصالحن على أنفسهن بأموال طائلة□"

ذكر الجبرتي:

- " أن زوجة رضوان بك-أحد كبار المماليك-ظهرت من مكانها الذي كانت تختبئ فيه□ وصالحت على نفسها وبيتها بثلاثمائة وألف ريال فرنسي، وأخذت منهم ورقة بهذا الأمان، وألصقت الورقة على باب بيتها، ولكن الفرنسيين بعد ذلك طلبوا تفتيش بيتها. وذهب إليها جماعة من العسكر ومعهم ترجمان، فقالوا لها:

-" لقد بلغنا أن عندك أسلحة، ونريد البحث عنها. فأخبرتهم أنه ليس عندها سلاح. فقالوا:

-" لابد من التفتيش. ففتشوا، ووجدوا ملابس ثمينة جدا لزوجها وأمتعة غالية. قال الجبرتي:

-" ثم نزلوا إلى تحت السلالم، وحفروا الأرض، وأخرجوا منها دراهم كثيرة، وحجاب ذهب في داخله دنانير، أخذوا الدنانير والسيدة وانصرفوا، ومكثت عندهم في الاعتقال هي وجواريها ثلاثة أيام، ولم تعد إلا بعد أن اشترت لنفسها منهم أمانا جديدا بمال جديد)) .....

" "...الست نفيسة هانم، زوجة مراد بك، ظهرت وصدقتهم، وصالحت على نفسها وأتباعها بمبلغ قدره عشرون ومائة ألف ريال فرنسي، وبعد فترة من الزمن أرسلوا إليها يطلبون منها إحضار زوجة عثمان بك الطنبرجي. ويتهمونها أنها تخفيها في

منز لها، أو في م كان ما. وه كذا انقل بت مه مة ج نود الجمهورية الفرنسية لا إلى البحث عن جنود المقاومة السرية، أو البحث عن القواد المختفين، بل إلى البحث عن النساء، لكي يرغموهن على شراء الأمان لأنفسهن بالمال...."

-- من أوراق احترق معظمها.....

((.....و.....و.....و.....و.....و.....و.....و.....

ضمن المرات.. ..... وفي مرة من

اتهمت الهانم بالخيانة، وإخفاء النساء المطلوبات لدى الفرنسيس فأرسلت نفيسة هانم فوراً تستنجد بشيوخ الأزهر، فحضر لها بعض الشيوخ على عجلٍ، ولم يتمكن الجنود اللصوص-أمام الشيوخ-أن ينهبوا شيئاً مما وجدوه في القصر، ولم يجدوا السيدة المزعومة، فاغتاظوا وقرروا أن يعتقلوا صاحبة القصر مرة أخرى، فحاول الشيوخ أن يمنعوا هذا الاعتقال، فأبوا وأصروا على أخذها. وهنا لم يجد الشيوخ الفضلاء بداً من مرافقة السيدة الكريمة إلى معتقلها، وهم مذهولون من أن يروا النساء يعتقلن لأول مرة في تاريخ مصر بدون سبب وعلى هذه الصورة المهينة....

في اليوم التالي.

كان الليلُ قد سدل نقابه، وذشروا قه على دروب القاهرة، و خرج الفقراء، وأر باب الأشاير بالطبول والزمر والأعلام وراح بعض العلماء يتلون القرآن، ويرتلون الأذكار، يطلبون النصر، ودحر الأعداء، و ضج الناس بالصياح والصراخ، وتقاطر العجائز من رجال الطرق الصوفية، وارتفعت الدفوف والبيارق والشارات، المشهد يبدأ على الطريق العمومي، عند مدخل باب زويلة، والرجال والنساء والصبية يتدفقون كالروافد من دروب ثعبانية وحوار وأزقة....

يظهر من زحمة البشر المجذوب (علي السريطي)، يرفل في أسمال بالية، يحمل على كتفه بندقية من الخشب، يلوح بها عاليا.

صرخ (علي السريطي) المجذوب وهو يترجل:

❖النار تشب في الدريس/

فُتح الهويس /

يارب شتت شملهم /

للّه يا أرض الكرم /

للّه يا أرض الهرم!

ويختفي من علي أعين الناس... ولكن صوته لا زال يطن من خلف بناء متهدم:

- غوثاك يا جد الحسين// غوثاك يا جد الحسين. !!

و حمل ا لحرافيش، والجعيد ية النبابيت والعصي والسيوف والخناجر والبُلط، يخترقون الدروب والعطوف، وأصواتهم تعلو بكلمات مغنَّاة من اختراعهم

و قدمت جما عات من سوق السلاح و باب ا لوزير وا لدرب الأ حمر، تزا حمت الجـموع الزا خرة ا لتي شمَّرت لـ لدفاع عن المدينة، كـما هاج طلاب الأزهر وسط الجمع، و صعد نقيب الأ شراف الـ سيد عـ مر مـ كرم إ لي القلـ عة يخـ طب في الـ ناس، يحثهم على الجهاد وحماية الوطن.

(٢٣)

وسط زحمة الناس وفي دكان الحدادة الذي يجاور وكـ الة الغوري -يقف أ حد الشباب، يمارس الطرق عـ لى السندان، فترك عـ مله وتـ قدم نحو الجـ مع، كـان شاخـ صاً ببـ صره عـ لى المشهد الهائج، هو في عنفوانه، فتونة، مفتول الساعدين، بارز الصدر، تتم ملا مح وجهه عن القوة، كـم كـان طويلاً، له مها بة، غـ ليظ الرقـ بة، ضخم الـ شارب، قال له أ حد معار فه الواقفين جواره:

-" محـ يي ا لدين البـ كري، لن يتركـ نا الفرنجة من تلقاء أنفسهم..."

رد عليه الشاب وقد تفصد العرق من جبهته:

-" كلامك يا محمود هو عين الصواب.

وقال آخر، مضيفاً:

- "والتاريخ أكد ذلك يا رفاق."

فاقترب منهم شاب أسمر دقيق، قمىء البنية، يرقد على رأسه عمامة باهتة الملامح، ولباسه الأزهري غير مهند:

- " الله معكم يا شباب مصر المحروسة..."

اقترب منه الشباب، وصافحوه بحرارة، وتعارفوا ...

قال محيي الدين البكري مشيراً إلى أصدقاءه:

- هذا صديقي محمود العسال والسعداوي أبو عوف، من أبناء رشيد.

ثم أشار بتواضع إلى نفسه:

- وأنا، أخوك في الله محيي الدين البكري. من حي الجودرية.

تهلل وجه الأزهري، كانت السُمرة تغلب على سحنته وتزيدها بهاءاً

-" وأنا سليمان من سوريا"

(ثم ابتسم في خجل غير مبرر وأكمل).

... رفاقي في رواق الشوَّام) ينادونني بـ (سليمان الحلبي)..."

قال محيي الدين البكري:

- (رواق الشَّوام). ؟؟!... إذن أنت من طلاب الأزهر الشريف.

قال سليمان:

-" نعم يا محيي الدين، فنحن أهل الشام نكن كل الحب لمصر ولأهل مصر ونقدر الأزهر الشريف ورجاله، الشيخ السادات والشيخ الشرقاوي والفيومي والصاوي، والزعيم المناضل السيد عمر مكرم الأسيوطي...."

قاطعة السعداوي أبو عوف ضاحكاً:

" هاااي. يا سليمان أنت تعرف مشايخنا أكثر منا."-

ربت محيي الدين علي كتف سليمان وابتسم:

" شباب الأزهر هم خِيرة الشباب، والخيِّرة تعرف الأخيار."-

طأطأ سليمان رأسه خجلاً:

-" بارك الله فيكم، وأتمنى أن تكون تلك الصدفة، معرفة خير. بإذن الله تعالى."

كان قد تصرَّم النهار، ووفد الليل، ونشر حجبه، فلاذ الناس بدورهم وظل القليل منهم خلف المتاريس يحرس بعض الأحياء. والطرقات؛ لدرء أية محاولة لهجوم. على الدروب والأزقة والعطوفات.

(٢٤)

وقف يعقوب-خلف تبة رملية عالية -يهمم ويحفز الجنود

الفرنسيين في القضاء على المقاومة المصرية، ويمدهم بالأسلحة والذخيرة، والوجبات الغذائية الكثيرة.

وفي المساء، خلف الثكنات و(الدُشم) كان (يعقوب الأسيوطي) يتضاحك مع الجنود الفرنسيين يسرد عليهم لنكات الخارجة الإباحية، فقال لهم:

- " ... مرة ست مصرية عجوز (سبعينية)، قالت بعد موت زوجها -لابنها:

" زوجني يا ولدي. لرجل عجوز مثلي يخدمني وأخدمه فبحث الابن عن طلب أمه فلم يجد، (ورجع بخفي حنين)، فقالت له أمه: يا بني لا تتعب نفسك فقد بحثت عن العجوز بما فيه الكفاية، فقال الابن يعتقد أن أمه لغت الموضوع من رأسها. لكن الأم بادرته باقتراحها:

" ابحث لي - يا بني - عن اثنين في عمر الـ (الخمس والثلاثين) عاماً....

فيضحك الجميع...

(٢٥)

من بعيد، يظهر بناء شامخ كأنه الحصن، وحوله الحدائق المزهرة والرياض الباسمة، يقول أحد المارة، يتبادل الحديث مع رفيقه عندما مرا بمقربة من تلك البناية.

-" لقد استقر المقام بالقائد العام نابليون بونابرت قائد الحملة الفرنسية، في قصر (محمد بك الألفي)، وأطلق عليه ((مقر القيادة العامة)). هذا القصر كان حديث البناء، استولي عليه بونابرت بعد هروب مالكه المملوكي ((محمد بك الألفي)) إلى الصعيد مع سيده ((مراد بك))، حيث أنفق الألفي علي هذا القصر أموالاً طائلة، يحوط القصر سياج عالٍ، بداخله حديقة واسعة تظللها أشجار (السرو) والبرتقال و(اليوسفي) ....."

قاطعة الرجل:

-". يُقال إن النافرات تتناثر بداخله والسلالم الرخامية المتداخلة بالمرمر والجرانيت الأسواني، والأرضيات من الفسيفساء، والأسقف والجدران مزخرفة بالنقوش الإسلامية ..."

قال الرجل مشيراً بأصبعه تجاه اليمين منبهراً:

" نعم، والي يسار القصر شجرة نادرة من الجميز.

..وأمامها مدق ترابي يؤدي للخلاء...

باستهجان قال الرجل:

وما أدراك يا عبد الجليل بتلك التفاصيل الدقيقة...؟؟.

قال الرجل وهو يترحم علي أيام زمام:

" لقد قضيت من فترة -أجمل أيام حياتي في هذا القصر....

الرجل يقاطعه:

أنت عشت في هذا القصر؟! " "

نعم والله. عشت مع سيدي محمد بك الألفي. أيام اللهو والرخاء.... كان رجلاً في الأربعين، جميل الوجه، وقور السمت، يلبس من الديباج والحرير "

" وماذا يحوي أيضاً؟"

قال الرجل متثائباً:

" كانت خزائن الكتب تشغل بهواً واسعاً وحجراً كثيرة، قد قسمت رفوفاً

وأقساماً: لكل علم قسم خاص به، تشتمل على أكثر من خمسين ألف كتاب، في الطب والعلوم والتاريخ والفقه والسيرة والعبادات...."

(٢٦)

في الإسكندرية...

في هذا اليوم الحزين، يوم الخامس من سبتمبر ١٧٩٨م، لم يستطع السيد محمد كريم أن يدافع عن نفسه، كان مقيد الوِثاقْ، مُكبَّل الأيدي، يجمع قيد حديدي مع قدميه، كان

يرتدي قميصاً من الكتان به بعض الخروق، مهلهلاً، محزوما وسطه بلحاء النخيل، فوق رأسه طاقية من وبر الجمال. يتمايل علي عنقه الطويل شعر أبيض مرسل، قد تلطخ بالأتربة من وعثاء الطريق، جلده شاحب، وغراب يحلق على سحنته، يفرض سطوته.

ووسط جموع الناس المتزاحمة، راح السيد عمر مكرم يراقب حركة الزعيم المناضل محمد كريم المتعثر في قيده، في لفه الحزن، وشهد ببسالة كريم واعتزازه، لصبره ونضاله، وطفقت من عينية الدموع، فتلفح بشاله الكشمير؛ ليتخفى، وأخذ يرتشف الغصة من الموقف المتخاذل من مراد بك تجاه حاكم الإسكندرية، قال السيد عمر مكرم ومنظر القابع في قيده يناوش مخيلته من آن لآخر:

❖اللّه معك يا صديقي، في لعسرة، يظهر معدن الرجال...!!

(٢٧)

ربطوه بأحد سروج الخيل، ثم انطلقوا راكضين في صياح وطرب، وأخذ الجند يجوبون شوارع الإسكندرية، والقابع في قيده عليه حراسة مشددة، وهو من خلفهم-متعثراً في قيده وثيابه.

وبعد غروب الشمس بقليل انبعثت حركة غير عادية في معاقل الفرنسيين، فقد اجتزت رأس البطل السيد محمد كريم علي غرة.

وفي الصباح، خرج الجنود الفرنسيين، يتمطعون في شوارع مدينة الإسكندرية، يرددون هتافهم:

❖ هذا جزاء الخائن!!

الفصل الثاني

حارة الجُودارية.

اللحظة وتداعياتها.

(١)

الجُودر ية : ا سم طائ فة من الع سكر، كان عددهم أربعما ئة ، عُرف هذا ال شارع من أ يام ا لحاكم بأمر اللّه الفاطمي ، فعلم الخليفة من (العَسسْ) أن جما عة من اليهود يجتمعون فيه، من وقت لآ خر، يتسامرون مع النساء ، بما لا يليق، فما كان منه إلا أن ذهب ليلاً، وأغلق أبواب الشارع ، والحارة المتفرعة منه، وأعمل فيها النار، ومنذ ذلك الوقت لا يـ سكن ولا يبـ يت فيـ ها يـ هودي أ بداً ، ويـ قع شارع الجودر ية بالقرب من أول شارع المؤيد ، وينتهي إلي أول شارع الخطاب، ومنه تمتد أيضاً- إلي جامع الظاهر بيبرس وإلي درب سعادة بشارع الأزهر..

(٢)

ومن أشهر ساكني حارة الجودرية، الشيخ خليل البكري. شيخ مشيخة (السجادة البكرية)، يقطن في بيت زوجته ((أم زينب))، كان البيت محاطاً بسور عالٍ، للسور بوابة حجرية ضخمة، تنغلق بسياج حديدي، يظهر ما خلفه، تتخلل هذا البيت عدة فتحات يدخل منها الهواء، به نوافذ تتسع إذا وهن الضوء وخفت، وتضيق إذا اشتد وسطع. الناظر من بعيد، يلمح البيت كبيراً، يتألف من ثلاثة طوابق، المشربيات تقترب بعضها البعض، والواجهة للمدقق تبدو من الطراز القديم السرمدي، ونوافذه التي تحيط (السطوح) مثلثية الشكل، مغلقة بزجاج ملون، يسدل عليها ستائر بيضاء.

والشيخ خليل البكري: هو أحد أعضاء ديوان حكم القاهرة، الذي كونه (نابليون بونابرت) والذي كان يتألف من تسعة مشايخ: عبد الله الشرقاوي ومصطفي السرسي وأحمد العريشي وسليمان الفيومي ومصطفى الدمنهوري ومحمد الدواخلي ويوسف الشبراخيتي وخليل البكري، أما محمد المهدي فعُين أمين سر الديوان.

(٣)

بيت خليل البكري:

به مجلس ومساطب للجلوس وتجرى منه المياه إلى المجاري المخفقة المرتفعة ومنها تنصب من مصبات من حجر إلى أحواض أسفل منها صغار وتجرى إلى مساقي المزارع وعند كل مصب منها محل للجلوس وعليه أشجار تظله وبوسطه أيضا ساقية بفوهتين تجري منها المياه أيضا والقصر يشرف على ذلك كله وحول رحبة القصر وطرق المشاة كروم العنب والتكاعيب وأباح للناس الدخول إليها والتنزه في رياضها والتفسح في غياهبها والسروح في خلالها والتفيؤ في ظلالها وسماها حديقة الصفصاف والأس لمن يريد الحظو والائتناس ونقش ذلك في لوح من الرخام وسمرة في أصل شجرة يقرؤها الداخلون إليها فأقبل الناس على الذهاب إليها للنزاهة ووردوا عليها من كل جهة وعملوا فيها قهاوي ومساقي ومفارش وأتخاخاً يفرشها القهوجية للعامة وقللا وأباريق واجتمع بها الخاص والعام وصار بها مغان وآلات وغواني ومطربات والكل يرى بعضهم بعضاً وجعل بها كراسٍ للجلوس وكنيفات لقضاء الحاجة وجعل للقصر فرشاً ومساند ولوازم ومخادع لنفسه ولمن يأتي إليه بقصد النزاهة من أعيان الأمراء والأكابر فيبيتون به الليالي ولا يحتاجون لسوى الطعام فيأتي إليهم من دورهم وزاد بها

الحال حتى امتنع من الدخول إليها أهل الحياء والحشمة

(٤)

قال محيي الدين البكري لصديقه السعداوي أبو عوف:

-"...المتخاذل عن مقاومة المحتل أكثر ملقاً واستخذاء من العلماء أعضاء مجلس الديوان الذين يحملهم الفرنسيون كل يوم على كتابة منشور مملوء بالآيات القرآنية لتأييد حكمهم الغاصب ودعوة الناس إلى طاعته ....

(٥)

من تلك اللحظة التاريخية في حياة الشيخ خليل البكري- على حد قوله-كان يمشي مختالاً، يمسك بنبوت مصنوعاً من شجر الجميز العتيق... لم يدخر وسعاً في إرضاء (نابليون)، فأغدق عليه الهدايا الثمينة، وغمره بالمودة، وتتابعت صنوف الهدايا من خَيلٍ وهجن وأسلحة ذات مقابض محلاة بالذهب والجواهر الكريمة، ضف إلى ذلك، شيلان الكشمير والأقمشة الحريرية من صناعة الهند، وعطور وعود وصندل، فضلاً عن الجواري الحِسان من الشركس والأحباش.

قالت له زوجته (أم زينب) ذات ليلة:

-" وماذا أنت مستفيد يا خليل من هذا النابليون. فأفعالك تثير الريبة بين الناس، وأخص ابن أخيك محيي الدين. خطيب ابنتك زينب"

رد خليل وهو يحتسي(البراندي):

-" الهدايا يا (أم زينب) هي الطُعم الذي نصطاد به الحيتان. وتُفتح به (طاقة القدر) لنا. وأطعم الفم تستحي العين يا أغبي مخاليق اللّه !!

وقتها كانت رائحة البخور الهندي تعمُر أقطار البيت.

(٦)

ما إن تأكد الخبر، زاد الهرج والمرج، بين الناس، بين المؤيد والمعارض، فبعد ما حدث من السيد عمر مكرم الأسيوطي، وصعوده إلي القلعة وأنزل منها بيرقاً كبيراً، أطلق عليه العامة من الناس ((البيرق النبوي))، ونشره من القلعة علي بولاق، ونشب القتال مرة أخرى بين أبناء الشعب المصري والفرنسيين، فالناس كانت-بعد إعدام السيد محمد كريم- بمثابة مِرجل يغلي، ونشب القتال من جديد، وتعاظم شر جند الفرنسيين،فارتاعت الخلائق، واستبد به الخوف، فقد جعل الفرنسيون مدافعهم- التي نصبوها علي المقطم- ترش الناس بلهب النار، واستمرت القذائف تتوهج، وتزأر فبدا الشارع

قطعة من نار ، وظل أهل القاهرة، فوق أسطح البيوت و خارج البيوت يتابعون أصداء المعركة، كما لم تهدأ أصوات دوي المدافع ولا الانفجارات إلا بعد ظهر اليوم التالي، وانتهي الأمر بفرار بقية المماليك، ورحل السيد عمر مكرم الأسيوطي إلى (يافا)، فقام (نابليون) بمصادرة أموال له، وعزله من نقابة الأشراف، وحقق ما كان يحلم به صديقة الشيخ خليل البكري، الذي أصبح نقيباً للأشراف و شيخاً للطريقة الصوفية (السجادة البكرية..)، و هذا هو الخبر الذي زاد الهرج والمرج، بين الناس..

بين المؤيد والمعارض. وعندما بلغ النهار منتصفه، انبعث في شارع بين القصرين حركة غير عادية، فقد خرج نقيب الأشراف الجديد (خليل البكري) ممتطياً جواداً عليه سرج مذركش، كان البكري يرتدي ملابس فاخرة، (فراجية) جبة واسعة وقفطان طويل الأكمام، ووضع على رأسه عمامة فيها علامة خضراء، منحرفة بشاش أبيض، خلفه بعض مريديه. (أصحاب المصالح)، كما أخذ النقيب الجديد يوطد العلاقة بينه وبين القائد العام وأعوانه...

(٧)

الأصدقاء كانوا إذا صلوا العِشاء، اجتمعوا فتحدثوا

طرفاً من الليل على مقهى (المتولي)، وأقبل الشاعر ينشدهم أخبار الهلاليين والزناتيين، وعندما يزداد ضجيج الزبائن، يخرجوا بكراسيهم على الطوار الخارجي، تحت (التانده) الخشبية القديمة، كان يجلس محيي الدين ومحمود العسال والسعداوي أبو عوف ومعهم سليمان الحلبي، قال محيي الدين في غضب ويده تقبض على كوب الشاي:

-" هكذا نسمع ونسمع كلام الشاعر الذي يفور الدم. وهذا عمي خليل البكري العميل، لا يتغير، وإن كانت على حساب وطنه وأبناء بلده.

قال السعداوي أبو عوف وقد أحس بغصة في كلام محيي الدين:

-" لا عليك يا صديقي، فلا يصح إلا الصحيح."

نحي سليمان الحلبي كوب الشاي جانباً، ثم نهض وكأنه تذكر موعداً مهماً:

" لقد تأخرت على درس الفقه يا أصدقائي." -

تقدم سليمان خطوة ثم عاد بنظرة للخلف ناحية السعداوي ومحيي الدين، ابتسم، وهز رأسه مطرقاً، ثم قال:

" عايزه صبر... لكن للصبر حدود."

(٨)

ارتفع صوت المؤذن يؤذن بالفجر، كان الخريف قد حل، وبدأت البلاد تعود تدريجياً إلى حياتها، ووسط أحياء القاهرة، كانت التشققات الطولية والعرضية لازالت واضحة في البنايات والأعمدة... كما تهدم جامع أبي هريرة بالجيزة، وُدمر قصر يوسف صلاح الدين الأيوبي، كما تشوه قصر الملك الناصر محمد بن قلاوون.....

(٩)

ذات يوم خريفي، زحف الغروب إلي مقر القيادة العامة بالأزبكية، وأطال نابليون النظر إلى قرص الشمس قبل اكتمال غروبه، بدا هلعاً، كأنه يري ذهاب الشمس لأول مرة، كان يقضي شطراً طويلاً من الليل في هذه الأهوال والأوجال والخوف من العفاريت. كانت المصابيح قد تدلت علي واجهات الدور فبعثت بأشعة واهية، تبدد الظلام، وكان نابليون لا زال يقف في شرفة القصر، ثم انتقل إلي قاعة الاجتماعات الرابضة بالدور الأرضي من القصر، هي قاعة فسيحة، على اليسار منها ينتصب ستار فاخر أنيق، وعلي اليمين نافذة تطل علي الحديقة، شباكها من الأرابيسك المطعم بالزجاج الملون، وصورة زيتية لأبي الهول والأهرامات

تر قد ع لي ا لحائط قرب الـ باب ا لموارب ق ليلاً ، أ ما أر ضية القا عة فكا نت مغ طاة بـ سجادة عريـ قة حمراء، ومنـ ضدة وا سعة تتو سط البـ هو عليـ ها شمـ عدان من النـ حاس، وفوق ها خرائط وأوراق ودواة و محبرة، وأوراق ملتـ فة متزا حمة، كان القا ئد الـ عام نابليون بو نابرت في حلـ ته العـ سكرية، يجـ لس معتدلا، يمسك برسالة، يقرأها علي ضوء الشموع الخافت ، ثم ينهض ويـ سير ناحـ ية البـ هو ا لمودي إ لي الحديـ قة جيـ ئاً وذهاباً، يحدث نفسه... في ألم وبصوت جهوري:

- " أ نا القا ئد الـ عام، أ نا نابليون بو نابرت غازي الـ شرق والغرب."

ثم ينخفض صوته قليلا:

- "أصبحت لعبة رخيصة في يدك أيتها (ا لجوزوفين)، العار يسحقني ويركل عزتي"

ثم يعـ يد قراءة الر سالة، ثم يلفـ ها في حـ سرة ويلقيـ ها دون اهتـ مام، ويـ قبض عـ لى هامـ ته، يـ صدر عـ نه صوت همهـ مة كبـ كاء طـ فل فـ قد أ مه، يعـ طي وجـ هه للـ حائط، وكأ نه يخاطبه:

-"شارل وجوزفين دنسا شريف، وأنا هنا في مصر أبحث عن المجد"

يهتز جسده للخلف فيستند على بيانو قديم:

-"واحسرتاه، لكن..."

ثم أعطي للحائط ظهره على فجأة. صامدا وبصوت مجلجلا:

- " لكن لا، مجد نابليون ملك الشرق، وسيد الغرب، لن تغير مساره تلك الزانية."

تلعثم وكأن الكلمة الأخيرة وقعت كالجبل على جسده القميء وانخفض صوته، وهبط على السجادة الحمراء:

" جوزفين أنا لم أعشق غيرك!، أنت الزوجة والأم والابنة، أنت دنيتي وآخرتي."

هز رأسه، وكأنه ينفض ما حدث من خاطره، ثم نهض وركل المقعد برجله: "سأعود يوماُ وأنتقم."

يشرد قليلا:

" جوزفين. (يصمت لحظة). تلهو بي أنا.... ؟؟!"

دق الباب دقتين متواليتين، فانتبه نابليون، فراح يعيد من ترتيب حاله ومن نبرات صوته إلى الصرامة والجد.

- تفضل.

دخل عليه أحد الضباط وأدى التحية العسكرية، فرحب به (نابليون)، وقال:

- أوجين. كيف حالك اليوم؟

رد الضابط:

- بخير يا سيدي، ولكني وددت أن أطمئن على قائدنا المعظم.

فأشار (نابليون) بيده في غير اكتراث، وقال:

- لا عليك يا أوجين، المهم. ما أخبار جنودنا. ؟؟

- الأمور تسير على ما يرام، لكن. (صمت وترجرجت شفتاه). المشايخ يا سيدي؟!

استغرب (نابليون):

- أي مشايخ؟؟، مشايخ الحارات؟؟

ابتسم أوجين، وقال مصححا القصد:

- لا يا سيدي، أقصد مشايخ الأزهر الشريف.

فالتفت (نابليون) يلتفت بحدة، وقال:

- مشايخ الأزهر؟؟، ما لنا و مالهم، نحن نحترم الدين الإسلامي ولا نقترب من عقائده ولا شعائرهم. !!

أجاب أوجين:

- مشايخ الأزهر يا سيدي تألب المصريين علينا، وخاصة عندما داهم جنودنا البواسل منزل السيدة (نفيسة زوج مراد بك حاكم مصر.....

فقاطعه (نابليون) ا بصوت فيه حزم):

- حسبك. يا أوجين. تقصد الجبان الهارب حاكم مصر السابق.

فأدرك أوجين أنه أخطأ في التعبير:

- معذرة يا سيدي، ذلة لسان، فحاكم مصر الجنرال نابليون بونابرت أسد فرنسا. والشام عن قريب يا سيدي.

فتبسم (نابليون) وقال:

- وما علاقة المشايخ بالسيدة... (يحاول تذكر اسمها) ...؟؟

فذكره أوجين:

- نفيسة يا سيدة، السيدة نفيسة زوجة مراد بك الجبان الهارب.

استغرب (نابليون):

- وما حرقة هؤلاء المشايخ على نفيسة تلك؟!

قال أوجين:

- يا سيدي، شعب مصر لك بالخصوص دون غيرك (يهمس). يقدرون من يعطف عليهم، والسيدة نفيسة كانت أيام زوجه - سيدة بر و خير، تساعد الفقراء والأيتام و تزوج اليتيمات، وتبني أسبلة الماء والكتاتيب لتعليم الصبية الكتابة والقراءة وحفظ القرآن.

فهز (نابليون) رأسه صاغيا وأكمل أوجين:

- والمشايخ يتعاطفون مع سيدتهم كريمة النسب.

ضحك (نابليون) قليلا، ثم قال:

-وهل تهتز العمائم من أجل سيدة يا أوجين...؟!

فأجاب أوجين:

- من أجل ذلك يطلبون تحديد موعدا لمقابلة سيدك.

فقال (نابليون) وهو يقبض على ذقنه:

- بلغ المشايخ، غداً في تمام العاشرة صباحاً يكون اللقاء هنا،

ثم أعطي لأوجين ظهره وصدرت عنه كلمة..." انصراف"

فانصرف الضابط أوجين بعد إن أدي التحية للجنرال.

وفي بُهمة الليل، كان المكان يظلم تدريجيا، ودائرة من الضوء تسقط على (نابليون) وهو يقف وحيدا...

فصرخ (نابليون) بهستيرية:

-"آن للزمن الجائع أن يلتهم الضعفاء!"

(١٠)

في المساء، ببيت خليل البكري، بحي الجودارية، في غرفة زينب البكري.

تقف زينب أمام المرآة، الصافية، ووجهها القمحي الفاتن، عليها ملامح الطفولة البريئة، رغم جسدها الذي(فار)، على حد قول أمها، وقفت تسرح شعرها المرسل على كتفيها، فعندما سقط المشط من يدها، ما لت بجسدها لأسفل؛ لتلتقطه، فبدا ردفاها ممتلئتان، رغم نحولة قامتها، وظهرت

حا فة سروالها ا لداخلي، فتطل عت إلي ها خادمت ها (ز مردة) بضحكة خبيثة وقالت:

-"أظهر وبان عليك الأمان يا بختك يا سي محي الدين بهذا الجسد النار"

فأومأت إليها زينب تفهم رطنها، فقالت مبتسمة:

-"غفريت يركبك يا (منتوشة)."

وعادت زينب تقبض على المشط بحنو، تمشط البقية من شعرها، كانت عيناها فسيحتان، وتدندن بصوت فيه شيء مخفي. وبصرها حالم نحو أمر بعيد...

ومرت لحظات، ووفد الليل الفاحم، قالت زمردة بلفة وهي تنظر من المشربية:

- سيدتي زينب. سيدي محي الدين عائد من عمله.

فقفزت زينب متجهة ناحية المشربية، وقد أشرق وجهها بابتسامة حالمة، وراحت تملي عينيها برؤيته، لمحها هو بدوره، فابتسم، ودلف إلى باب بيته، وسار في دهليز قصير، ثم جلس على (دكة خشبية) وهو يرقب بطرف عينه زينب التي غابت في الظلام....

(١١)

كانت الشمس تطل بأشعتها الذهبية من النافذة، تبعث الدفء في المكان، ويظهر في الجانب الأيسر جزء من الممر المؤدي إلي

(السلالم) حيث يجلس القائد العام الجنرال بونابرت.

دخل أوجين-كعادته-وأدى التحية للجنرال، ثم فرد ورقة طويلة بنية اللون.. وأخذ يخاطب الجنرال وينظر إلى الباب الخلفي المفتوح على آخره:

-" الشيخ مصطفى الصاوي."

وانتظر قليلا، فدخل شيخ معمم، يرفل في ثقة وثبات، كان قد رقد على رأسه عمامة كبيرة. وزبيبة الصلاة تتوسط رأسه كثمرة التين. ويرتدي قفطانه بني، قدم الشيخ التحية دون أن ينحني،

ثم أكمل أوجين:

-"والشيخ سليمان الفيومي"

دخل الشيخ الثاني في هيئة الشيخ الأول، كان يغلب على الشيخين مهابة ووقار العلماء.

أكمل أوجين وهو يلف الورقة دلالة على نهاية الوافدين ويلتفت للقائد العام:

-" سيدي الجنرال نابليون بونابرت القائد العام الشيخان قادمان لمقابلتكم نيابة عن مشايخ الأزهر، وعن شعب مصر"

نهض (نابليون) ورحب وبادر بالحديث:

-" مرحباً بمشايخ مصر الأجلاء." وتقدم للمصافحة.

صافحة الشيخ الصاوي في هدوء:

-" مرحبا بالقائد العام."

وتقدم الشيخ سليمان الفيومي و صافح (نابليون) دون أن ينبس بكلمة

وجه (نابليون) الكلام للشيخ الفيومي:

-".. شيخ فيومي؟؟. من الحاكم الحقيقي للبلاد؟؟. أين هم؟؟"

تقدم الشيخ الفيومي قليلاً، ثم قال:

-" الحكام ولت يا سيادة الجنرال، والرعية ذلت، وقد أتينا من قِبل علماء المسلمين والأعيان نطلب لهم الأمان."

فقال (نابليون) في هدوء:

-" لا خصوم لي سوى المماليك، والأمان كل الأمان لكل شعب مصر."

تشعر أنه كان يتصنع الود، وأكمل:

-" نحن يا مشايخ المسلمين نؤكد الضمانات والتي سبق وأن منحناها للأشخاص والبيوت والممتلكات"

ثم وقف بين الشيخين، وقال:

-"ولا سيما لدين النبي محمد الذي أحبه. !!."

ربت (نابليون علي كتف الشيخ الفيومي بحنو وقال:

-"وأنتم يا مشايخ المسلمين فإنني-بصفتي حاكم البلاد- راض عن مسلككم، فقد أحسنتم صنعاً بالامتناع من الوقوف ضدي. "

ثم ارتفع صوته:

-" لقد جئت مصر (سكت لحظة)؛ لإعادة مملكة العرب؛ ولإحياء زمن مجد الفاطميين من مرقده."

(وارتفع صوت (نابليون) مرة أخرى على فجأة، فقال:

" لماذا تخضع الأمة العربية للأتراك؟! .."

(ثم خاطب الشيخين وهو يقف كعمود السواري، يحاول التشويش علي قصر قامته، فقال:

-" بلغوا عني كل مشايخ مصر، الشيخ السادات والشيخ الشرقاوي والشيخ عمر مكرم والشيخ خليل البكري، بأنني القائد العام (نابليون بونابرت) سيفتح معهم صفحة بيضاء ناصعة البياض..."

فاقترب منه الشيخ الفيومي، وقال:

-" لك خالص التحية يا سيادة الجنرال، ولكننا أتينا أيضا نتعشم في كرمكم، نتشفع للسيدة نفيسة زوجة مراد بك...

فهي سيدة بر وخير، تساعد الفقراء والأيتام وتزوج اليتيمات و..... (مقاطعة من نابليون).

قال (نابليون) وهو يشير بيده؛ ليسكت الشيخ عن الكلام وكأنه يحفظ الديباجة الخاصة بالسيدة نفيسة زوج مراد بك). فقال:

-" وتبني أسبلة الماء والكتاتيب لتعليم الصبية الكتابة والقراءة وحفظ القرآن.الخ الخ."

وفي وقار العلماء، قال الشيخ الصاوي

-"وهذا عين الحق يا سيادة الجنرال. (تقدم قليلاً). ولقد سبق وأن صالحت السيدة على نفسها وأتباعها بمبلغ مائة وعشرون ألف ريال فرنسي. بمعني أنها اشترت الأمان لنفسها...! "

فالتفت الشيخ الفيومي إلي الشيخ الصاوي مقاطعا، فقال:

-".. شراء الأمان أو بيعه ليس موضوعنا يا شيخ."

-" أيها المشايخ، أنا أقدر مجيئكم هنا. ومن أجلكم. (يصمت لحظة وكأنه يصدر فرماناً). الأمان كل الأمان للسيدة نفيسة. !!"

تهلل وجه الشيخين، ثم قدما التحية وانصرفا، وانصرف خلفهما الضابط أوجين.

(١٢)

وفي بداية عام ١٧٩٩م.

في مقر القيادة العامة. قاعة الاستقبال، قاعة كبيرة مستديرة، على جدرانها ذقوش، وكلها مفروش بالسجاد الثمين، تمتد على جوانبها أرائك، مفروشة بالمخمل الأحمر، للقاعة بابان، أحدهما من جهة اليمين، وهو الباب الذي يدخل من الضيوف من الخارج، والآخر علي يسار القاعة، وهو يصل القاعة بسائر القصر...

يدخل نابليون وبرفقته الجنرال (كليبر) والعالم (فوريه) ومن خلفهما الجنرال (كفاري للي). صاحب الساق المبتورة، يتوكأ على عصا، و(فورية) يحمل حقيبة مكتظة بالأوراق،

نابليون مكملاً الحديث وهو يجرع ما في الكأس الذي أمامه. فقال

-" وما أخر أخبار الجيش وقواده يا كفاريللي؟"

فيتقدم كفاريللي متوكأ، مبتسماً:

-" الجنرال جاك فرنسوا مينو تزوج يا سيدي؟؟"

فيلتفت إليه نابليون مستغرباً:

- ".... مينو تزوج. ؟؟!... هذا العجوز، إنه تعدى الخمسين. (يطرق هنيهة).. وبمن تزوج. ؟؟

قال كفاريللي:

- "من فتاة مصرية تدعي ((زبيدة محمد البواب))، والدها من كبار التجار في رشيد. هي طليقة (سليم أغا المملوكي) أحد الأمراء الفارين للصعيد مع مراد بك."

قال نابليون متبرماً:

- " تزوج بمسلمة. كيف؟؟. شريعة المسلمين تحرم ذلك. على حد ما سمعت من الشيخ خليل البكري. في إحدى الجلسات."

فيطهر على كليبر التأثر:

-" لقد أشهر الجنرال إسلامه يا سيدي."

قال نابليون مبتسماً:

-" إنه عجوز متصاب، يروم المتعة أينما ذهب."

فاستند كفاريللي على كرسي (البامبو). وقال:

-" لقد أصبح يرتدي العمامة العربية والجبة والقفطان، وأطلق على نفسه (عبد الله مينو). وقص شاربه وسوالفه-التي كان يشتهر بها، وأطلق لحيته.

نابليون:

(يقاطعه نابليون وكأنه يرغب في تغيير الحديث، يلتفت إلى كليبر). وقال:

- "وأنت يا جنرال. ؟؟"

يرد كليبر:

-" من بعد إعدام (محمد كريم الحاكم السابق للإسكندرية) وأنت تعلم يا سيدي بما ألم بنا وبجنودنا."

يتنهد نابليون ثم يقول:

-" ثار المصريون. (بحماس) ونصبت لهم مدافعي على جبل المقطم، ومسجد الشيخ حسن، والأزهر، لأن الأزهر مبعث الثورة كما تعلمون يا سادة، وقضيت على الثورة من جذورها. بعد تنفيذ حكم الإعدام في ثلاثة عشر من مشايخهم."

بضحك كفاريللي ثم يقول:

-" والمضحك يا سيدي، عندما أتي إليكم الشيخ محمد الجوهري يصرخ في هستيريا متوسلا (يقلده بتهكم) سيدي الجنرال جنودك دخلوا الأزهر الشريف بخيولهم، وحطموا خزائن الكتب التي لا تقدر بثمن. هذا خراب. هذا خراب. أرجوك لا تقحم بيوت الله ودور العلم في هذا الصراع...."... (ثم يضحك في خبث)

يلتفت نابليون يميناً ثم قال:

-" وما أخبار الجنود يا جنرال كليبر؟؟

كليبر: لقد التقت قواتنا يا سيدي مع قوات المماليك عند (شبراخيت) منذ أيام، فحملت الهزيمة بالمماليك، واستحوذ جنودنا على السيوف والرماح والحراب والغنائم، ولاقى اليقين مراد بك بأنه يواجه ما لم يعهده من قبل... وراح شيخ البلد

ينادي في الناس بفتح الأسواق، وتعليق القناديل على الدور والدكاكين؛ لإدخال الطمأنينة في قلوب أهل القاهرة...

نابليون:(يلتفت إلى فورية).

- وأنت يا عالم الآثار الجليل. ما قولك فيما سمعت ؟؟ فأنت أكثر فهماً لطبيعة الشعب المصري.

فورية:

- المصري يا سيدي، لا أخفي عليك سراً. لا يحب المحتل بطبعه، يا سيدي ولو كان المحتل عادلاً. فبرديات الفراعنة (المصريون القدماء) تشهد علي ذلك، فقد صبر المصريون علي احتلال الهكسوس سنوات طويلة حتى خرج منهم شابا مصريا جلداً ، وكون جيش الخلاص، ونجح في طرد الهكسوس من بلاده، ...

نابليون:(مقاطعا). صه يا فورية، يبدو أن جذورأصلك. مصريا.

(يضحك في هستيريا، ويضحك الجميع).

الفصل الثالث

فوران العشق

(١)

((زينب البكري))

جلست زينب في غرفة نومها ثم اتجهت إلى المرآة ذاهلة حالمة: فرأت وجهاً كأنه إشراقة الصبح أو صفحة البدر، أو تبلُّج الحق بين ظلمات الشكوك، به عينان حوراوان امتزجت بهما صولة السحر بنشوة الخمر، فكانتا شباك الفتنة لصيد القلوب، وأذنا حسن لله تقويمه وأبدع تكوينه فزاد وجهها جمالاً، وثغر درّي ياقوتي، تهيم به الشفاه، وتحوم حوله القلوب ظمأى، كما تحوم طيور الصحراء حول معين الماء العذب النمير، ثم رأت صدراً صافي البياض ممتلئاً بالأنوثة الناضجة، يعبث بالعقول، كأنه سبيكة من لجين، استعارت من الزئبق

لينه فظهرت ناصعة رجراجة واتشحت بوشاح (يُسمى الشُّمار)

(٢)

قبل أن يشمل القمر المكان بنوره، اجتمع خليل البكري مع الجـ نرال كلـ يبر والجـ نرال مير نو وأو جين والجـ نرال كـ فاريللي، ويعـ قوب حـ نا، حول (راكـ ية الفـ حم)، الـ نار مـ شتعلة، يمـ ضون الـ سهرة في لـ عب الـ نرد و تدخين النارجيـ لة و(التمباك) الفرنسي.....

وإذا الجوّ يتأرجح بعَرفْ البخور ....

كان خليل البكري يخضب لحيته بالسواد، هو مبتهجاً بتلك الصحبة. وكيف لا يبتهج وقد أحس أنه ارتفع بوجودهم معه -درجات...!

(٣)

ا فترش ضيوف خلـ يل البـ كري الحـ شايا، يدخنون النارجيلة، ويشربون المسكرات.

(٤)

كان صوت خليل البكري المخمور يملأ البيت صخباً طلباً للعَرق، وعندما دخل البيت كان البهو صامتاً...

(٥)

وعندما هدأ الليل، وانصرف الجميع، تحركت أم زينب مذعورة، حدقت في وجه زوجها، الغارق في سبات نوم عميق، كان يتنفس بصعوبة، وذفراته ترجف شفتيه الباذنجانية.

(٦)

وقتها تراقصت أضواء المشاعل الباهتة على بوابة البيت الحجرية،

(٧)

استيقظ خليل البكري قرب الضحى، كان يترنح. يسيطر عليه الخطل والحمق، متثاقلاً، و (الرمص) ينثال من عينيه؛ جراء السهر...

(٨)

وبعد ساعة نراه يقف في ثوب نومه الداخلي مشمراً أكمامه، كان يشرف على إدخال أواني الطعام، حمل بنفسه صينية يتوسطها غزال مشوي، جيء خصيصاً للقائد العام، وتناثرت على المائدة، أزواج الحمام المشوي، والديوك الرومي، وذبائح البط والإوز.

(٩)

قال نابليون لصديقة القواد:

" أنا أعشق النساء-وأخص منهن- صاحبة الجسد الفارع والأطراف الدقيقة وأنظفهن....

(١٠)

قالت زينب لأمها:

" .. أعرف يا أمي فنابليون ليس من جنسي ولا من قبيلي، ومحيي الدين ترب صباي وشقيق روحي، وفيه صفات الأبطال وخلائق سكان السماء، ولكن ليس لديه ملك وليس لديه عرش، مثل القائد العام، وأمير الجيوش الفرنسية.

نهضت أم زينب بجسدها البض من مكانها، في قلق:

□ محيي الدين البكري خطيبك وابن عمك، سينال منك...!

هبت زينب في ثقة:

بونابرت مصدر قوتي، ومحيي الدين إن فكر يوما في مس شعرة مني.

(ثم ابتسمت). سيعلقه بونابرت كالذبيحة على قارعة الطريق.

غمغمت أم زينب في قلق:

❖ هكذا كعادتك، تتعلقين في الحبال الذائبة ...!

ابتسمت زينب وندت عنها نظرة حالمة، تحلق في الأفق:

❖ زينب البكري، مدام نابليون بونابرت. ستجلس يوماً- وعن قريب على عرش مصر المحروسة.

(١١)

ما أ جمل، وأرق، وأ ثري بالو عد، مثل أذني تهيأت للقيام عندما تشيع مكونات حُسنها الترقب، وتسرع نقاط حوافها مرسلة عبرها صوب من ترغب، ممهدة لحلول اللحظة ا لتي سيصبح فيها الفرد، جمعاً، والواحد اثنين.

(١٢)

زي نب، هي مي ساء، ذات رف عة أنثو ية، بريق ها داخ لي صميم، يتوهج في لحظات الدفء والمودة، ويخفت في الأحوال العادية، لكنه يشع كدفء خفي المصدر.

(١٣)

عند العناق، وفي ذروة الا ندماج، تبدل الوجع، تبدي وداً، فعندما تو قت برفقته، تحت و هج المصابيح، فإذها تأتي من خ في الحر كات، ما لم ي قدر عل يه الـ صمود أما مه أع تى الرجال، وأشدهم صبراً، ومِراساً، ولحظة بلوغها الأوج، وذروة المتـ عة، أطلـ قت صرخة نافرة، غري بة، كـا نت خلي طاً من حشرجة وجعيراً، من ضحك وبكاء، كل الأ صوات تتداخل، وتخمد عندما سرى صوت المجذوب (علي السريطي) في الهزيع الأ خير من الليل، يترنح، ويصفق بيدين مغروقين: " اللّه حي. اللّه حي. اللّه حي."

(١٤)

كانت زينب ترفل في ثوب من الحرير الهندي، يتكون من ثلاث قطع وردية اللون، سروال وقميص وعباءة طرزت بالرسوم الزخرفية القشيبة بالقصب. وراحت ترقص في غنج و مجون. لساعات

(١٥)

في المدخل، أبدى الظلام المثقل بأعمدة الرخام، فأومأت زينب -وهي مغطاة بملاءة بيضاء -مشيرة إليه بأصبعها، تستمهله، لحظة لقائه بها، بدا ثابتاً، راسخاً، قسماته هي التي اختلجت مسفرة عن رغبة أذني، قالت زينب لنابليون وقد لفهما الظلام:

" إن هيئتك العسكرية، وشكلك اللطيف، قد استولي عليَّ، والحقيقة التي لم أعد أستطيع أن أخفيها. إني أعشقك."

وهنا، استمر نابليون يتطلع إليها هادئاً، مبتسماً، غير عابئ بالهواء الذي أخذ يلفح نصفه السفلي العاري.

(١٦)

صفت زينب شعرها على طريقة نساء الفرنجة، وصنعت لها الماشطة (الخواجا) عمامة مربوطة بشاشات ملونة، وعقصت بقية شعرها الفاحم، ودلت منه خصلات على جنبيها وأذنيها، وجعلتها تدهن جسدها بالطيب وعطر القرنفل، وكحلت لها عينيها بالكحل الدمشقي، وارتدت جميل الثياب، وقد جمع أسفل نهديها بحزام من الخرز تدلي طرفاه على فخذيها، فوق سروال من نفس القماش ولبست فوقها حبرة.

(١٧)

فلما كان أول الليل، عاد نابليون وقضي مع زينب ساعة في ضحك وعبث.

(١٨)

كان سائق العربة يرتدي نعلاً في قدميه، فبدا منفرداً في سرواله الجميل الفضفاض، وقميصه الواسع المزركش الذي جُمع عند الخصر بزنار مشغول يتدلى من جانبه خنجر صُنع مقبضه من الخشب المحفور الجميل، وعلى رأسه طربوش

أحمر، وجهه شديد البياض، وعيناه حادتي الغور، وأخذ سائق العربة (يلسع) الحصان بلهيب سوطه، فأسرعت العربة تشق الليل، وسط تكاثف الظلام الذي امتد...

(١٩)

عندما سري صوت المؤذن يؤذن بالفجر، وارتفع صياح الديكة، وباتت الدنيا تتمخض عن مولد يوم جديد... انتصبت زينب وسط(الطست) النحاسي، وأخذت تصب بـ(الكوز) على جسدها، ماء فاتر، يتساقط الماء، يختلط بدموعها، وبمخاط أنفها الذي تدلي من شدة البكاء. تدمدم في غضب.

" الله يلعنك يا نابليون الكلب... أنت تكرشني من بيتك كالجمل الأجرب، أنت كلب ...أنت ولا تساوي قطرة من دم حيضي..."

(٢٠)

قالت زينب لنابليون في لهجة ساخرة:

-" لعلك تظنني متيمة بحبك؟ اليس كذلك؟!

قال نابليون وهو يقبض علي يدها الصغيرة، بحنو:

-" ربما."

قالت زينب، في ثبات:

-"يجب أن تعلم يا سيدي أن حبك لم يلامس قلبي قط.

قال نابليون وقد احمر وجهه:

"أنا ما أكرهتك على الزواج. لم إذن تزوجيني؟ .."

نهضت أم زينب بـ (العافية) من جلستها، تصوب الحال، تخاطب نابليون:

-" زينب، تحبك وتقدرك يا سيدي، هي بنتي وأعرفها (صمتت قليلاً). ولكن موضوع زواج السر هو الذي ينغص عليها حياتها، هي تخشي الفضيحة، إذا انكشف السر، (ثم لوت بوزها). أو أصبح في جوفها جنيناً منك. ماذا نقول للناس. (ثم لطمت خديها، وكأنها تذكرت شيئاً مهماً). ماذا نقول لخطيبها، ابن عمها محيي الدين البكري، هو صعب للغاية. لا يتحدث إلا بالخنجر، وبالذات مع زينب فهو يحبها منذ الصغر. (ثم نفت بحركة من أصبع سبابة يدها اليمني). محيي الدين البكري يعشق زينب، وفوق ذلك فدمه حامٍ، أيرضي أن تتزوج ابنة عمه زواجاً في السر، والناس لها الظاهر فترميها بالعهر والفساد "

وكأن الكلمة الأخيرة أيقظت زينب من مرقدها، فصرخت:

-" أمي"

قالت أم زينب بصوت خفيض قارب على البكاء "

-" هي الحقيقة يا بنيتي، والواجب علي أن أذيبه سيادة القائد بذلك"

قال نابليون في وعد:

-" كلامك هو عين الحق يا أم زينب، سأعلن زواجي من زينب فور عودتي من حملة الشام."

نطقت زينب بسخرية:

-" يموت الحمار لحين ورود العليق لا تخدعني يا سيدي. أرجوك فأنا لم أعد أحتمل تلك المهارات! .."

قال نابليون، وقد اقترب من زينب، وابتسم:

-" زينب. نوَّارة قلبي. سيجمعنا قصر الألفي-بعد عودتي من الشام-و سأعلن للعالم أجمع أنك زوجتي بشريعة المسلمين. وجنينك الذي بنبض في أحشائك، سيكون ملكاً على الغرب والشرق، هو خليفة أبيه الذي أرعب العالم..."

تشعر أن زينب قد ارتاحت - هي وأمها -لتلك الكلمات التي في ظاهرها غير الباطن. والعلم عند الله.

(٢١)

المشهد / نهار / خارجي.

على الطريق العمومي. عند مدخل باب زويلة، والرجال والنساء والصبية يتدفقون كالروافد من دروب ثعبانية وحوار وأزقة.... يظهر عند وكالة الغوري المجذوب (علي السريطي)، يرفل في أسمال بالية، يحمل على كتفه بندقية من الخشب، يلوح بها عاليا. يترجل ويتمتم منشدا في خطوات عسكرية

" الذئب يا قومي ذهب". ثم يخبط بقدمه بقوة على الأرض. يستطرد قائلاً:

" يارب شتت شملهم ". (يرفع يديه)." للّه يا أرض الكرم. للّه يا أرض الهرم. للّه يا أرض الهرم"

.. يعود يخبط بقدمه ثم يختفي.

يأتي المنادي يقطع الطريق بالعرض فوق حمار أبيض ويمسك بطبلة صغيرة:

" أيها الناس. (يطبل) ... من القائد العام الجديد. الجنرال كلبر، خليفة نابليون. (يطبل). والحاضر يعلم الغائب. (يطبل)، من يقبض عليه وبحوزته سلاح. (يطبل)، يُعدم في ميدان عام..."

(كررها مرتين ثم اختفى. ثم عاد مرة أخرى يرفع يديه للسماء:

" غوثاك يا جد الحسين. غوثاك يا جد الحسين. !!" .. ثم اختفي ...

(يتزاحم المارة قارعة الطريق)

رجل(١):

- لقد رحل نابليون عن مصر سرا!

رجل (٢). يصافح الآخر فرحا.

- الله لا يعيده.

رجل (٣). متهكما).

- لكنه ترك لنا (كلب البر). يتعنطز علينا...!!

رجل (١). ضاحكا.

- تقصد الجنرال كليبر القائد العام الجديد. ؟!

رجل(٣):

- مشي الكلب وترك الجرو.

رجل آخر:

- والمصريون! أينامون على الضيم؟

رجل(٢). يتقدم قليلاً:

- مصر المحروسة لها الله. والمصريون مساكين، لقد أصبحوا نهبة لكل ناهب.

صوت: بتقريرية.

- لقد تجبر الجنرال كليبر على شعب مصر، نصب المدافع، أخمد الثورات، قتل، نهب، فرض ضرائب باهظة، فما كان من الشاب السوري البطل سليمان الحلبي إلا قتل

هذا الطاغية، في حديقة قصره. وخلص مصر من بطش جائر ...

(٢٢)

نطق خليل البكري بكلمات كسيرة يخاطب ابنته زينب:

" سامحيني يا بنيتي. فأنا الذي وضعتك في هذا الفخ

قالت أم زينب:

-" صمتي معك هو الذي شجعك يا نقيب الأشراف. ولكن ما الحل يا بنيتي بعد رحيل الكلب ابن الكلب سراً لبلاده "

قال خليل، يطَّيب بخاطر ابنته:

-" سيعود يا زينب "

صرخت أم زينب في وجهه:

-" حرام عليك يا رجل، الفضيحة تدب في بطن ابنتنا، ...."

قالت زينب وهي تجز على أسنانها، وتنتبذ ناحية السرير فتنهال على بطنها ضرباً بكلتا يديها وبكل قوة:

- " هذا جزائي. هذا جزائي !! "

تحاول أمها وأبيها أن تمنعها، فتصرخ فيهما وتحيد عنهم:

-" دعوني، دعوني، لا شأن لكم بي "

قالت أم زينب ودموعها ترسم علي وجهها أخاديداً:

-" حرام عليك يا زينب"

قالت زينب متنهدة ويدها تضرب بقوة على بطنها:

-" الحرام أن يبقي هذا في بطني"

-" ما ذنب الجنين المسكين يا ابنتي " ...

قالت زينب وهي ترمق أبيها في حقد:

-" ذنبه انه دخيل ابن دخيل"....

وبعد ضربات متوالية وقوية. صرخت زينب وسقطت على الأرض، فصرخت أمها ملتاعة:

-" بنتي زينب ستموت يا خلق"

فصرخ فيها خليل البكري

" صه يا امرأة. ستفضحين أمرنا."

(٢٣)

في المساء ... في غرفة زينب.

اقتربت زمردة من سرير زينب همهمت الخادمة بالبكاء، لما أصاب سيدتها زينب، راحت زينب تردد مع خادمتها في حسرة، وتربت على كتفها:

" أنا لست نادمة علي شيء يا زمردة، ولا حزينة، ولست سعيدة على الإطلاق، أنا أنظر إلى العالم بعينين مغلقتين "

(٢٤)

نهضت زينب من فراش المرض بعد النزيف الذي أودي بجنينها (سقطاً)، لقد انتهى صبرها ووهي جلدها، فلم تكد تقف حتى هوت، أو كادت، وأسندتها أمها وخادمتها زمردة، فتمالكت نفسها، وخرجت من غرفتها مطرقة ساعية في هدوء، ومر بجسمها رعدة انخلع لها قلب أمها فبكت وراحت تحضن زينب وهي تلعن تلك الأيام السوداء التي لمتهم على (الرمة) نابليون. هاتك الأعراض. ثم سبت ولعنت علي زوجها عديم المروءة ....

(٢٥)

تذكرت زينب هذا الحوار.

قال نابليون لزينب، ساخراً:

... لا... ليس هناك شيء أسمه الحب.

إني أضحك على البنات العبيطات.أمثالك.

إن ما يسمي حبا ليس.... ليس إلا. ماذا أقول. انه مجرد

تعود. نعم، مجرد تعود. تتعودين على رجل وتتأصل فيك العادة، حتى تظنين أنه الحب. تماما كما نقول إن هذا الرجل يحب الخمر. هل يعقل أن رجلا
يحمل في رأسه عقل. يحب الخمر.!!

(٢٦)

ولما أشرقت الشمس، كانت جالسة القرفصاء، منكسة الرأس كئيبة محزونة. دخلت عليها البلانة..... تنهرها بلطف قائله لها:

" لا تنكسي رأسك يا ست زينب. ولا تبكي على اللي راح. وانطلقي وشوفي نفسك...!! "

نظرت إليها زينب والحرقة تحيل جسمها لهيباً. وغيظاً. قالت وقد تعلق بصرها بسحارة ملابسها:

"لن يضير الشاة سلخها بعد ذبحها...! "

(٢٧)

المشهد/ ليل/ داخلي...

في صدر المكان، بداخل ملهى ليلي، ((ملهى التيفولي)). باب كبير حيث البار والمرقص، وصالات البلياردو، والموائد منتشرة على الجانبين، الوقت عند الأصيل، يتنقل (جارسون) نوبي بين الموائد، يقدم الخدمة للزبائن، من زجاجات نبيد وأطباق بها صنوف متنوعة من (المزة)، ترمس وفول سوداني مقشر، وزيتون أسود مخلل).

يدخل ضابطان في ذي العسكرية الفرنسية، وعند المائدة رقم (٥). كانت زينب تجلس في (مياعة) وشبه السُكر. كانت تلبس الفستان، والمناديل الملونة، والكشمير، جسدها فارع الطول، وعليها أطراف دقيقة.

وعلى البار على مقربة منهما. قال ضابط وهو يشير الي زينب:

-". مدام بونابرت، كما تدعي ألا زالت، تسكر وتعربد. "؟؟

يرد عليه الضابط الثاني في لؤم:

-" ما رأيك بها؟"

الأول:

-لا بأس بها!

الثاني:

-أنت متحيز للسمار.

الأول:

- السمار نصف الجمال.

تنتبه إليهم زينب، فتقترب من الضابط الأول تمد يدها.

قالت بصوت مخمور:

-" هلم أيها الجميل لنرقص...! "

نهض معها الضابط مبتسماً:

-". هيا. يا جميلة الجميلات "

رقصا معا علي صوت الموسيقي الزاعقة، والضابط الثاني يصفق مع قفزات بهلوانية متكررة منه....

ينتبه الجميع، يشكلون نصف دائرة حول الموائد. تصفيق جموعي، يشجعون الرقص.

زينب تتناول كأس النبيذ على عجل، تشرب و ترقص، تشرب وترقص. حتى سقطت من أثر السُكرْ.

(٢٨)

و قرب الفجر، لحظة أن كانت ألسنة النار المنبعثة من المشاعل لا زالت تضئ الشوارع، كان خليل البكري يتمدد على سطوح بيته، يرقد كالفأر المبلول تحت غطاء خفيف، ذ هض بحذر شديد، وأ خذ ينظر إلى حر كة الشارع من

الفتحات المثلثية، ينتابه الهلع عندما يشعر بحركة مريبة من بعض قاطني الشارع، فأمسك الهلع بخناقه.

(٢٩)

عندما ظهر خليل البكري في شارع جانبي، اقترب منه محي الدين، لكن زحمة الناس كانت سببا في اختفاء خليل البكري، بعيدا عن ابن أخيه، أغمد محيي الدين بكري خنجره وأعاده إلى موضعه في منطقته وهم بالانصراف.

(٣٠)

ذعم، كان سليمان الحلبي طالباً مجتهداً، رغم ضيق حاله، يذهب في كل صباح لحضور الدرس بالجامع الأزهر، ثم يعود برفقة صديقه محيي الدين البكري يراجع معه ما حفظ من أبواب الألفية، يملأ فمه بالقاف والراء، صوته الرخيم كان يتهدج بقول ابن مالك:

كلامُنا لفظ مفيدُ كاسْتقمْ واسم وفِعلُ ثُمَّ حَرف الكلمْ
وَاحُده كلمةُ والقول عَـــم وكِلِـمهُ بـها كـلامُ قد يُؤم

(٣١)

كان سليمان سعيداً با لذهاب إلى حل قة درس الـ شيخ (السادات) وكم كان مبتهجاً حين خلع نعليه عند باب المسجد ومشي على الحصير ثم الرخام (الساقع). وكم كان سعيداً أيضاً-حين أخذ مكانه في الحلقة إلى جانب عمود من الرخام، لمسه فأحب ملامسته ونعومته، وأطال التفكير في قول أبيه:" إني لأرجو أن أعيش يا سليمان واراك صاحب عمود في الأزهر الشريف "

(٣٢)

كان سليمان يسكن بيتاً غريباً، فعند عودته من درس الظهيرة، ينحرف في درب ضيق لا يسعه إلا هو، ثم يدخل فجوة ضيقة تؤدي إلى باب غرفته، وظل هكذا طيلة عام، مصبحاً وممسياً، وكانت رائحة (الفسيخ) الصادرة من مخزن مجاور تفتح شهية سليمان فيفتح جرة (الجبن القديم) وينهل منها كما ينهل من "ألفية ابن مالك"...!

(٣٣)

لم يكن سليمان يعرف من المصريين إلا ثلاثة: محيي الدين البكري والسعداوي أبو عوف والرشيدي محمود العسال، فقد كان يخرج في عز الحر؛ ليقابلهم على مقهى (المتولي)، يرتشفوا معاً أقداح (الحلبة الحصى الباردة) باللبن الحليب. ويتناولوا قراطيس (البليلة حمص) من عند حانوت عم (فيروز النوبي). يتندروا بالأحاجي والإلغاز.

قال سليمان، يتحداهم:

" عندما مرض النهار. عادته كل الأجرام السماوية إلا ثلاثة .....هه من يعرف؟؟؟؟؟"

نطق محيي الدين:

- الكواكب...

أشار سليمان بأصبعه:

- لا...

قال العسال:

الشمس؟

أشار سليمان مرة أخرى بأصبعه:

- لا.

ثم ابتسم وقال:

- عجز الرفاق ؟!

فهزوا رؤوسهم، فقال سليمان:

- عندما مرض النهار. عادته كل الأجرام السماوية إلا الليل والقمر والنجوم.

وضحك الجميع...

(٣٤)

اشتعلت الثورة في القاهرة، وهاج الثوار صوب مخافر الجنود الفرنسيين ، فقبضوا عليهم، وازدحمت بالناس شوارع الغورية والنحاسين والموسكي، وأخذ الجنرال (ديبويه) حاكم القاهرة يصد الثوار مع طائفة من فرسانه ، فأطبقوا عليه الخِناقْ ، وأصابه أحدهم بطعنة نجلاء في صدره فخر صريعاً، فزاد بذلك حميتهم ، وتكاثر عددهم بمن انضم إليهم ما أرباض القاهرة ، بدأت الثورة من بولاق، ثم باب اللوق والمدابغ والمحجر والشيخ ريحان والناصرية والقصر العيني وسوق السلاح وباب النصر والرويعي وباب الحديد والقرافة والسويقة.. وعاد بارود الفرنجة يتساقط على الأحياء، واشتدت القذائف، ولكن حماس شعب مصر برفقة المناضلين، كان أقوي من المدافع والبارود، فلما توارت الشمس خلف جبل المقطم، تنفس جنود الفرنسيين الصعداء، بعد أن لاذوا بالفرار، بعد أن خارت قوتهم، وأصيب عدد كبير منهم، وكان ذلك إيذاناً بتغيير ميزان القوي.

واستولوا المصريون على المواقع الحصينة: كباب الفتوح، و باب النصر، و باب الشعرية، وأخذوا يحفرون الخنادق وينشئون الحصون، ويطلقون منها النار على الفرنسيين.

وهنا، أدرك الفرنسيون دهامة الخطر المحدق بهم....

وقف السيد عمر مكرم يؤم المصلين لصلاة العصر، وبعد نهاية الصلاة اجتمع مع الناس، و كان برفقته، السيد المحروقي ومصطفى البتيلين ومحيي الدين البكري ... ونجح هؤلاء الشرفاء في عمل مصانع في المنازل للبارود، وانتشرت الثورة، وشارك بعض الأتراك والمماليك فيها.

ودعا إلى الهجوم بين تهليل المهللين وتكبير المكبرين، وكان القتال في الحارات والبيوت، واستمرت المعركة ساعات سقط فيها عدد غير قليل من الجانبين، ولما احتدم القتال، كان محيي الدين البكري يجاور محمود العسال في الثكنة، يحمي ظهره، يصطادا جند الفرنجة كالعصافير، ولاح النصر في جانب أهل المدينة، ورأى محمود العسال رابية لا تزال تتحصن بها ثُلة من الجنود، فدعا بعض الفتيان إلى محاصرتهم، ولكنه لم يكد يتقدم منهم قليلاً حتى رماه أحد برصاصة اخترقت صدره فسقط على الأرض صريعاً، وهنا ثار السكان ووثبوا وثبة رجل واحد، و هرب الجنود، و عاد الجموع فأسرع محيي الدين البكري بحمل جثة محمود بين

البكاء والعويل، والدم ينزف بشدة ،حتى وصلوا إلى بيته، وخلفه العشرات من أهل الحي ، كان الحشد عجيباً حقاً ، فهرعت زوجته..

المسكينة باكية، ورمت بنفسها عليه تعانقه وتقبله، وتخاطبه:

" محمود يا حبيبي، أنت العين التي أري بها في ظلمات الأيام، إن لله وإن إليه راجعون." .....

ثم تعود لتخاطبه كأنما هو حي مدرك، بألفاظ تقطّع نياط القلوب، وصديق عمره، محيي الدين البكري يجلس عن قدميه يقرأ في المصحف قليلاً، ثم يلهج ببكاء متقطع، وكلما رأى دم محمود الذي لطخ كل ثيابه، عاد يهمهم بالبكاء، وقتها تشعر بأن اليوم في هذا الحي-كان من أحلك أيام العام؛ حزناً على ابنها الذي أحبه الجميع.

(٣٥)

زاد الفزع في قصر كليبر. عندما علم الجميع بمقتله علي يد شاب أزهري يُدعي سليمان الحلبي

(٣٦)

المشهد/ نهار/ داخل قصر الألفي...

يزداد ا لهرج وا لمرج، تُ سمع أ صواتاً مختل طة من الخارج.....

- فلتوثقوه.

- لا تضربوه.

- غلو يديه إلى الدُبر.

- لا تقتلوه.

يُدفع سليمان الحلبي بعنف إلى الداخل، كان شاباً أسمر دقيق الملا مح، قميء البنية، يرقد على رأ سه عما مة باهتة، ولباسه الأزهري غير مهند، كان موثوق اليدين خلف ظهره، يتعثر في جلبابه الأزهري وخلفه مينو وكفاريللي وآخرون)

وبصوت حانق زاعق. (كفاريللي) يخاطب سليمان:

- كيف ارتقيت القصر يا هذا لتفعل ما فعلت؟ .....

يقاطعه (مينو):

- بل كيف تجرؤ يا فتي علي قتل الجنرال كليبر ؟!

كان الضابط يقبض على تلابيب سليمان. يلكزه بقوه في جنبه:

- من حرضك على قتل كبيرنا. ؟؟

يجز (كفاريللي) على أسنانه:

- من أين أنت يا فتي؟

يكمل (مينو):

- أجب يا مجرم. واذكر لنا من حرضك.

يرفع سليمان رأسه بهدوء وثبات:

- أنا سليمان، من حلب، ولم يحرضني أحد، فلي الشرف أن أكون محرض نفسي على قتل الطاغية.

(كفاريللي) مستغربا. ثم لم يلبث شعوره هذا أن استحال إلى ازدراء:

- هل قلت: من حلب؟

سليمان (مؤكداً):

- هذا صحيح.

يلهج (كفاريللي) بكلماته المضطربة:

- ومن الذي أغراك يا حلبي على هذا الجرم المشين؟

سليمان وهو يوزع صنوف النظرات على الجميع:

- لم يغرني يوما أحد.

يتقدم (مينو) وهو يمسك بالخنجر الملوث بالدماء فقال:

- أو ليس هذا خنجرك؟

سليمان يجيب بهدوء أعصاب:

- هو خنجري.

ضابط (٢) يقترب من سليمان، يتهكم:

- هل تدري ما مصيرك يا فتي؟؟

سليمان يتفوه بثبات المؤمن:

- لله الأمر من قبل ومن بعد.

يتقدم (مينو) في غيظ:

- هدؤك يخرجني من شعوري. أتحسب أن هدوء أعصابك سيخفف العقوبة عنك؟ أنت تحلم. !!!

ينظر إليه سليمان ويبتسم دون أن ينبس بكلمة....

(كفاريللي) مستغرباً:

- وجئت لمصر لتلقي بنفسك في النار، أهي بلاد كم لتضحي من أجلها. ؟؟

سليمان وهو يرأب برقبته النافرة:

- يا صاح مصر هي العروبة كلها.

فيشير (كفاريللي) إلي الضابط (٢) إشارة معينة، فيومئ الضابط برأسه ويخرج بسرعة.

(ثم يوجه (كفاريللي) كلماته الساخرة لسليمان:

- سيكون قتلك رائعاً. !!

سليمان يتفوه في شجاعة:

- قتلي سيكون روحاً تبعث الإشراق في الفجر الجديد. ودمي سيذكي الثورة الخامدة في قلوب كل مصري. بل كل عربي.

يدخل الضابط(٢)، برفقة آخر، يدفع أمامه أداة تعذيب تشبه الكرسي تزحف على عجلات صغيرة، كان يتوسط الكرسي سن مدبب ماض كالسيف

كان المشهد يتوسط الغرفة...

(مينو) شاخصاً بصره صوب سليمان وهو يتوعده في حنق:

- سنريك يا حلبي كيف عذابنا.

يُدفع سليمان بعد فك قيده-ناحية الكرسي.

وبصوت مؤمن بقضاء الله يتمتم سليمان:

- يارب اكتبني شهيداً صابراً وقت العناء.

ثم يقترب من الكرسي. يقترب أكثر... يتجمد المشهد ... وبعد لحظات.

يعود صوت الصرخة. تمتزج بقهقهة الواقفين. تختلط الأصوات:

- اضغط عليه جيدا

- الخازوق نفذ

- لا زال على قيد الحياة

- إنه يتمسك بالحياة رغم الألم

يعود المشهد للثبات مرة أخرى. يقطعه صوت صرخة عالية ثم صمت مطبق.

(٣٧)

كان مصرع الجنرال كليبر العام الماضي، ثم ولاية الجنرال مينو هذا العام، هو الذي عجل بتطوير الأحداث.....

(٣٨)

-- في ٢١ أبريل ١٨٠٠م، أشرقت الشمس على القاهرة بيوم جديد، امتلأت الشوارع بالمارة، وفتح البائعة الحوانيت، وانتشرت الحركة في رديهات المجاورين. في ذات اليوم دخل قهوة المتولي حشد من طلاب الأزهر غاضبين على مقتل زميلهم (سليمان الحلبي)، يتقدمهم (مصطفي البشتيلي): زعيم حي بولاق وهو من تجار بولاق، ضخم الجثة، عُرف بالجرأة والسلاطة وبغض الفرنسيين، فما جلس حتى صاح:

" أزفت الآزفة، ليس لها من دون الله كاشف"...ثم استطرد مكملاً..."إنها الكارثة لقد استطاع الأسطول الانجليزي أن يسحق أسطول فرنسا بالبحر هذه الكارثة هي قاصمة الظهر لهؤلاء الفرنسيين الغزاة.

قال أحد الواقفين:

" وحق سليمان الحلبي الذي أعدمه الكلاب؟؟ "

فرد آخر في شجاعة:

"الثورة في كل إقليم، واستئصال شأفة الغزاة هو حق سليمان"

فتهلل وجوه الحاضرين، وصاحوا:

" نحن معك يا بشتيلي. نحن معك يا محروقي. مصر لن تركع لأجنبي "

ثورة الإبطال:

قام الثوار بإنشاء معملا لإصلاح الأسلحة والمدافع وإنشاء معامل للبارود في بيت قائد أغا بالخرنفش، وعملا لصنع القنابل اليدوية....

(٣٩)

ففي منتصف عام ١٨٠١م .... كانت قوات الانجليز والدولة العثمانية قد أخرجت في هذا اليوم المشرق البهي آخر جندي فرنسي من مصر، ألف وقع أقدام جند الفرنسيين يمضون في الدروب والعطوف المتشابكة، يميزها ارتطام الأحذية الثقيلة في أرض الطريق....

لقد فرح المصريون بخروج الفرنسيين....

.. وقتها كانت ظلال الغروب تعلو الأسطح وأعلي البيوت فوقف الرجال خلف المتاريس في الشوارع المتقاطعة، وخليط من التجار وأرباب الحرف، أصوات المؤذنين تختلط بالناس، تدعو للاحتفال، قدم الأهالي من طريق الأهرام وبلبيس وتجمعوا في دا خل ا لجامع الأز هر، وفي درب ال طبلاوي، ودرب المسمط، ومضوا في الشوارع الضيقة والملتوية، القصيرة، ا لتي تتقارب فيها شرفات الدور المتقاربة، وتزدحم بالمارة والدواب. وتصايح الرجال، وارتفعت العصي بالتحطيب والرقص، وأطلت النسوة من الشرفات وقد علت أصواتهم بالزغاريد والأغنيات الشجية، ورش (البسلة) -المكونة من الملح والقمع والفول البقري-لبدء عهد جديد. لمولود جديد، مصر.

الفصل الرابع

نهاية المطاف

(١)

ارتجف خليل البكري في لباسه الداخلي، ووقف في فناء بيته كالمخبول، فباغته أحد الثوار بدفعة قوية، ولكزه بمقبض سوطه، كان عاري الرأس، بعد أن أطاحوا بقلنسوته وهم يضربونه اللكمات فبدت صلعته مدبوغة جرداء، فجلس على التراب، حزيناً، مفكراً، وأصوات الناس وعجيجهم تملأ أذنيه....

(٢)

ارتفعت ضجة عالية أمام بوابة بيت خليل البكري، العدد يزيد عن المائتين، يتبادلون التعليقات، ثمة من يعرف الحكاية، وثمة من يسأل، وأعداد المحيطين للفرجة تتزايد حتى بلغ جامع الظاهر بيبرس،

كان وباء الطاعون يستشري كالنار في الهشيم. فقد كان شهراً مذكراً. ماتت جنودُ كثيرة من جمود الحملة الفرنسية. نعم، كان الفتك ذريعاً. مما أرعب قادة الحملة وهز فرائصهم.

(٣)

وثار هياج في الغورية، وعند الجهة الشرقية لشارع بين القصرين، وبمدخل بيت القاضي، رجموا أعضاء الديوان الذي كونه نابليون في بداية حملته على البلاد، ومكن كان على صلة بالفرنسيين، وانهالوا عليه بالسحب والنكال...

صرخ أحد الثوار، نريد رأس الخائن (يعقوب الأسيوطي) (❖❖)

فقال له أحد الواقفين: لقد هرب هو وأهله بسفن الفرنسيين، لقد خشي من انتقام شعب مصر منه.

(٤)

وفي ذات اليوم، عندما تعامدت الشمس على الأرض. قام محمد خسرو باشا بعزل خليل البكري من مشيخة السجادة البكرية؛ لأنه وطد العلاقة مع المحتل الأبق، كما سمح لابنته زينب بالتبرج مع الفرنسيين، وأن تخرج عن طور الأدب الإسلامي، والعادات المصرية. وعقدوا لهم محاكمة شبه عسكرية....

(٥)

في صباح اليوم التالي... (يوم الثلاثاء) ....

تجمهر العامة، كان يتقدمهم الشيخ السادات ومحيي الدين وأخرين. وانضم إليهم فتوات الحسينية فزاد الهرج والمرج. والتف الجميع في نصف دائرة. أمام منزل خليل البكري بحي الجودرية. ارتفع الضجيج والعجيج

.. تخرج زينب وأمها وخليل البكري في ذعر تباعاً. فقد ظهرت زينب وقد أفل شعرها، كانت هزيلة شاحبة في أسمال لا تكاد تستر جسمها، وكان وجهها يحكي وهو صامت برجفة. عليها آثار المقاومة، يجري خلفها ابن عمها وأخرين، يتعقبها.

خليل البكري كان في هيئة سيئة وهندام غير أنيق. ورأسه حاسرة لا تحمل العمامة، والأم مضطربة. لحظة صمت. يقطع الصمت صراخ حيواني عنيف من زينب، تمر اللحظة ثقيلة، زينب تخاطب محيي الدين في حدة وغضب:

"اسمع يا هذا. إياك أن تقترب مني! "

ثم ترتمي على أمها وأبيها، تتمتم متوسلة في شمم اليائس:

"... أمي. أبي!!."

فنكز أحد الواقفين خليل البكري في كتفه:

"و ماذا أ نت قا ئل في الأف عال الوق حة الـ سافرة من سكر وعربدة التي صدرت من ابنتك زينب مع الأجانب القاريين. ؟؟ "

قال خل يل الب كري مدهو شا متل كئ و هو يدفعها عن وجهه:

"...إني بريء منها!"

فهزت زينب رأسها في شجن وأسى...

صوت (١) يصدر من رحم الزحمة:

" رجل ديوس."

صوت(٢) من الخلف، كان جهوري:

". زينب تقتل. !!"

فترتجف أم زينب وتجهش بالبكاء، تخا طب الجمع و هي تغالب النشيج:

".. ماذا تستفيدون من قتلها؟!"

فتهتز زينب مرتجفة، تحاول الفرار ناحية المر المفتوح لكنها تفشل، تصرخ وهي تنظر للسماء في صوت كسير:

".. أنا تبت إلي الله. والله تبت ..."

صوت(٢) من الأمام، في صلف بصوت يدوي كالرعد:

" هي محاولة جديدة من محاولاتك الدنيئة! "

بدت من الخارج أصوات مختلطة للجماهير:

تكررت تلك الأصوات من كل حَدبٍ وصَوبٍ:

" زينب تقتل! "

قال محيي الدين بصوت يائس خفيض:

". زينب تقتل!"

أطرق الشيخ السادات هنيه، ثم ترجل وهو يرمق خليل البكري وابنته بنظرة إشفاق:

" لا حول ولا قوة إلا بالله! "

أحكم محيي الدين راحتيه حول رقبة زينب، كان جسدها الصغير يصارع الموت صرخت في هلع، صرخة مدوية، ارتعشت أطرافها، حروف الكلمات المتحشرجة على لسانها تهرول. تتعثر. تلهث. أحست بمئات الخيل تدوسها تحت سنابكها. تتركها جريحة، بعد لحظات قليلة، سكتت وإن ظلت العينان جاحظتان والفم مفتوح.... يسقط ضوء الشمس

بشدة علي زينب وهي مطروحة على الأرض كالشاة المذبوحة .... صمت طويلاً من الواقفين.

(٦)

كانت الشمس تتسلل ببطء، وقد تلونت السماء بضوء السحر الضبابي سمع صرير سلاسل ضئيلاً خافتاً، كان خليل البكري يتحرك في وهن شديد، فتح عينيه ببطء، أخذ يوزع صنوف النظر على الجمع المتجمهر حوله، كان يشعر بجلده يحترق، والعرق ينثال من كل جسده، لمح ابن أخيه محيي الدين يرمقه بنظرة لا تخرج إلا من حاقد من وجهة نظره-فطفرت من عينيه الدموع.

(٧)

وبعد أيام قليلة. في نهاية شهر شوال من عام١٢٢٧هـ،

وفي المساء. ومهما يكن من شيء ، فقد أمسي هذا اليوم غير أي مساء، فقد كان خليل البكري يرقد علي فراش الموت ، وقد امتلأ جسده بالكدمات

والرضوض..... صمت طو يل.. و ظلال الـ غروب تعـ لو الأ سطح والبـ يوت، سكنت حر كة الطر يق من ا لمارة. كـ ما سكن جـ سد خلـ يل البـ كري. ودُ فن بالقرا فة بمـ شهد أ سلافه. لاذ الـ صمت عـ لى الجـ مع. حـ تى الطـ يور فوق حي الجودر ية لاذت بالصمت أيضا....

((النهاية))

((هامش على سبيل الاستزادة))

❖❖❖ (١) (يعقوب حنا الأسيوطي) .....

((الموت في برميل من النبيذ !!!))

في تاريخ مصر شخصية عجيبة، لعبت دوراً كبيرا أيام الحملة الفرنسية على مصر، تلك الشخصية المعروفة باسم (المعلم يعقوب حنا الأسيوطي) .... أو (الجنرال يعقوب) فيما بعد، كما أطلق عليه من قِبل (نابليون بونابرت) القائد العام للحملة الفرنسية. كان المذكور بعاليه (يعقوب) يُعد نموذجاً حياً للذين تعاونوا بإخلاص مع المحتل ضد بلادهم، قدم لهم كافة المساعدات في مختلف الأمور أخص التمويل الغذائي والبشري -مقابل مكاسب مالية كبيرة دون النظر لوطنه وأبناء جلدته، وقد نصحه بطريرك الأقباط وقتها بالعدول عن تلك التصرفات، لكنه ضرب الكلام بعرضْ الحائط....

لقد أصبح (يعقوب حنا) عند قادة الحملة الفرنسية على رأي المثل العامي المصري :((فلان أصبح عندنا فرخة بكشكْ)). فقد ساعد حملة الجنرال (ديزيه) في القضاء على المماليك الفارين بصعيد مصر، وأقبح ما قام به هذا الـ

(اليعقوب العقرب) قيادته لفرقة عسكرية من المرتزقة لإخضاع شعب مصر وإخماد ثورته ضد المحتل الفرنسي ...

وعندما تقرر جلاء الحملة الفرنسية من مصر سنة ١٨٠١م ، أصر (يعقوب حنا) أن يرحل هو وأهله مع الحملة ويسافر إلي باريس مع القوات المنسحبة ؛خوفاً من انتقام المصريين الشرفاء منه ، لخيانته ، وركب البحر ، وبعد أن تحركت السفينة بيومين ، أُصيب (يعقوب) بحمي شديدة ، ومغص شديد في بطنه ، فقد كان يصرخ بـ(بعزم ما أعطاه)، يصرح في النهار ، وفي جوف النهار ، دون انقطاع، وما لبث أن اشتد عليه المرض ومات في عرض البحر ... ولم يلق ربان السفينة بجثة (يعقوب) إلي البحر كالمعتاد في هذه الحالة بل استمع إلي رجاء من أهله ، فاحتفظ لهم بالجثة في (برميل من النبيذ !!) حتى وصلت إلى مرسيليا ودُفن هناك. غريباً. في أرض الغرباء... (حكمتك يارب!)..

ولعل في قصة (يعقوب حنا الأسيوطي) وأمثاله ما يكون درساً رادعاً قاسياً لا يُنسى للذين يفكرون في تقديم أي عون للعدو، فالموت فوق تراب الوطن بشرف، أكرم وأجل من الموت غريباً هارباً. (جثة في برميل نبيذ !!!) .....

وفي الختام لابد من كلمة:

عزيزي القارئ: أنصحك بالقراءة المتعمقة لمراجع الرواية، فهي بمثابة المصور الأمين، الذي يفرد سجلاً كاملاً صادقاً لحياة فترة زمنية حافلة بالأحداث، فترة، تخضع لنواميس النشوة والارتقاء، وتلهم العبر والعظة، وتهدي إلى بواعث التقدم وعوامل الدثور؛ لان كل ذلك يتطلب من المهتمين والدارسين لتاريخنا المزيد من الدراسات والبحوث؛ لإخراج هذه الدرر والكنوز من أصدافها، وتقديمها في ثوب قشيب بسيط يليق بعظمة وروعة تاريخنا العربي...

المراجع العربية

((ا لتي تم الاعت ماد علي ها في تأليف الروا ية. ووقائع ها التاريخية))

١. المؤل فات التاريخ ية لل مؤرخ المو سوعي// ع بد الرحمن الجبرتي. مثل:

❖❖ " عجا ئب الآ ثار في التر اجم والأخبار "، لجنة التأليف والنشر، القاهرة،

سنة ١٩٤٩م.

❖❖ "مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس"

موسوعة ((وصف مصر))، ترجمة زهير الشايب ((عشرون جزء)).

٢. ينـ ظر، " تاريخ الحر كة القوم ية العرب ية "، ج٢، للمؤرخ عبد الرحمن الرافعي.

٣. يُنظر، " الخطط التوفيقية " لعلي مبارك، الأجزاء (٥) و (٧) و

القاهرة، سنة ١٩٥٦م

٤. -" مدي نة أ سيوط. بين الما ضي والحا ضر" لعثـ مان فيض الله، ط(١)، ال قاهرة، ١٩٤٠م، ط (٢) بـــ -

((مطبوعات الهيئة العامة لقصور الثقافة)) سنة ٢٠١٠م، تقديم الشاعر سعد عبد الرحمن.

٥. "شخصيات وتجارب" للأديب المفكر جاء النقاش، مكتبة الأسرة، القاهرة، سنة ٢٠٠٧

٦. يُنظر، "تاريخ الحركة القومية العربية" للمؤرخ عبد الرحمن الرافعي.

٧. فريد عبد الرحمن، تاريخ الطرق الصوفية في مصر في القرن التاسع عشر، ترجمة: عبد الحميد فهمي الجمال، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٥م، ص ٩-١٠ بتصرف.